الباب الأول

الفصل الأول

الانتقال من العصور الكلاسيكية الى العصور الوسطى

تواجه الباحث في تاريخ ما يدعى بالعصور الوسطى في أوروبة عدة مشاكل وعقبات ، ترتبط بتسمية هذه العصور ، وحدودها الزمانية والمكانية مع أحوالها وأحوال أناسها ، من حيث الأصول العرقية ودرجات التطور الحضاري وطبائع وأنواع العقائد التي أخذت بها وتأثرت بما جاء بها.

وتسمية هذه العصور بالوسيطة جاء من اصطلاح الباحثين على تقسيم العصور التاريخية عامة الى أقسام ثلاثة هي : القديمة . ثم الوسيطة ، فالحديثة ، وليس من المناسب هنا الدخول في نقاش حول هذا المصطلح من حيث صحته .ومطابقته للواقع التاريخي ، لكن يكفي أن نذكر أن هذا الاصطلاح ما هو الا أداة ليسهل بواسطتها البحث ، واننا حين نقول عصور قديمة ، ثم عصور وسيطة لا نعني أن هناك حدودا حادة تفصل بين هذه العصور ، ثم اننا حين نقول عصور بالجمع نعني أن التاريخ القديم تألف من فترات فيها تشابه وتنافر وكذا التاريخ الوسيط .

ويقودنا هذا كله نحو أولى مشاكل العصور الوسطى ، وهي متى بدأت هذه العصور ـ إذا كانت قد وجدت ـ ثم متى انتهت ؟ إن أية محاولة للتعرض لايجاد أجوبة لهذه الأسئلة ستكون عملا عابثا ما لم يقدم لها بمقدمة يبحث فيها بأصول تاريخ أوربة في العصور الوسطى .

كانت قارة آسية سباقة في معرفة الحضارة والثقافة للقارة الأوربية ونظرا لارتباط أوربة بآسية ، فقد تم انتقال المؤثرات الحضارية الآسيوية الى أوربة ، لكن هذ المؤثرات لم تكن الوحيدة

التي غزت أوربة بل ينبغي أن يضاف اليها المؤثرات الأفريقية لمصر وشمال أفريقية وحين نبحث في تاريخ الحضارات التي قامت في أوربة قبل العصور الوسطى نجد أن أصول هذه الحضارات كانت شرقية ، ولهذا نجد تاريخ هذه الحضارات شديد الارتباط طوال حياته بالشرق ، وفقط عندما تم قطع الأواصر بين أوربة والشرق قامت العصور الوسطى ، وعندما أعيدت هذه الروابط انتهت هذه العصور وبدأت العصور الحديثة .

وابرز الحضارات التي قامت في أوربة قبل العصور الوسطى هي : الحضارة الاغريقية ، ثم الرومانية ، ولا حاجة بنا هنا لاستعراض التاريخ الاغريقي بمراحله قبل الاسكندر وبعده ولا تاريخ الامبراطورية الرومانية ذلك أن هذا لا يعنينا هنا ، ويكفي أن نستعرض بشكل موجز التاريخ المتأخر لروما ، فهذا التاريخ هو المدخل الطبيعي لدراسة تاريخ أوربة في العصور الوسطى .

من المعروف أن روما أضطرت أثناء صراعها مع دولة قرطاجة الى أحتلال بعض الأراضي المجاورة لايطاليا بغية اتخاذها خطوط دفاع أولى في العمق ، وقد ولد هذا الطمع في احتلال المزيد من الأراضي فكان أن استولت على سردينية وصقلية ، كما استولت على اسبانيا سنة ١٩٧ ق . م ، ذلك أن اسبانيا كانت قد مهدت السبيل لغزو هانيبال لايطاليا أثناء الحروب البونية ، وأثناء هذه الحروب توسعت قدرة روما البحرية ، ونظرا لتحالف قرطاجة مع مقدونية ، سعت روما للانتقام من مقدونية ، وفي سنة ١٩٧ ق . م. هزمت روما مقدونية فسبب هذا احتكاكها بالدولة السلوقية ، وفي سنة ١٩٠ ق.م انتصرت روما على انتيوخس الثالث ملك سورية السلوقي ، وبذلك تغلغل نفوذ روما داخل آسية الصغرى على ابواب سورية ،وهكذا تابعت روما أعمال توسعها وكان ذلك بشكل رئيسي داخل بلدان المشرق المتحضرة فقد احتلت روما سورية ، وعندما حاولت التوسع شرقا اصطدمت بالامبراطورية الفارسية ، فتوقفت أعمال توسعها في ذلك الاتجاه مع نهر الفرات لكن من سورية انتقل

النفوذ الروماني نحو مصر ، وقد ضاع استقلال مصر وغدت مقاطعة رومانية بعد معركة اكتوم سنة ٣١ ق.م ، وكان قد حدث قبل هذا بزمن بعيد اخفاق هانيبال امام روما ، وقيام الجيوش الرومانية باحتلال قرطاجة ثم الشمال الافريقي ، وهكذا نجد روما مع نهاية القرن الأول لما قبل الميلاد قد أصبحت صاحبة السيادة على شواطىء البحر المتوسط ، ونتيجة لذلك غدا هذا البحر بحيرة رومانية .

وقد ترتب على التوسع الروماني نتائج خطيرة جدا ، فقد وجدت روما نفسها سيدة للجزء الأعظم من العالم المتحضر في اوربة واسية وافريقية ، ومتملكة للميراث الحضاري لهذا العالم بكل محتويات هذا الميراث الثقافية والمدنية والفكرية والاجتماعية ، كما أن هذا التوسع منح روما ثروات لا تقدر ، وقد كان لهذا الثراء آثاراً إيجابية وسلبية على المجتمع الروماني ، فانحطت الأخلاق ومن ثم تأثرت الادارة الرومانية بذلك كثيرا .

فروما حققت توسعها بوساطة الادارة العسكرية ، لذلك نجد أن السيف كان هو مصدر السلطة الفعلي في هذه الامبراطورية ، ورجال السيف ـ أي الجند ـ هم أصحاب الشأن الأول في الدولة ، وسعيا وراء سرعة التحرك العسكري نجد الدولة الرومانية قد قامت بمد العديد من الطرق المرصوفة لوصل روما العاصمة بكافة أجزاء الامبراطورية ، وجهد رجال السلطة الرومان في تأمين الأمن ، وكان لهذا انعكاسات على النشاط التجاري ، ونقل منتجات الشرق الأدنى والأقصى إلى روما ، ونقل التجار دائما أنواعا من البضائع : مراية مستهلكة ، وغير مراية ثقافية وحضارية لها صفة الديمومة والتغيير .

ولم تتوسع روما داخل البقاع الأوربية إلا بقدر ما فرضته ضرورات الأمن والدفاع والحاجة إلى التوسع ، وكان لهذا نتائج في غاية الخطورة ، فعلى يد شعوب أوربة غير المتحضرة او المترومنه كليا سيتم اسقاط روما والقضاء نهائيا عليها وبالتالي قيام العصور الوسطى .

لقد كان لطبيعة الحكم في روما العاصمة والمدن الايطالية وداخل المقاطعات ، ومشاكل حقوق المواطنة الرومانية أن وجدت مجالات كبيرة لخلق المشاكل والفوضى مما كان سببا دائما للشكوى والثورة .

فرجال الأعمال الكبار وأصحاب الأموال والتجار ممن لم يتمتعوا بحقوق المواطنة الرومانية اضطروا الى التأثير على أصحاب السلطان وسواهم بوسائل غالبا ما كانت ملتوية ، وهذه الأوضاع الشاذة لفتت انتباه بعض المصلحين لكن غالبا ما كانت عبثا جهود هؤلاء أمام قوة اندفاع التيار العام الذى منح القوة حينا ، ثم تحول فقاد نحو الانهيار .

ومعلوم أن تاريخ روما قد مر بعدة مراحل يراها بعضهم : المرحلة الملكية ، ثم الجمهورية وبعد ذلك الامبراطورية ، وقامت الامبراطورية فعليا بعد نصر اكتافيوس في معركة اكتوم سنة ٣١ ق.م حيث نال لقب أوغسطس ولمدة قرنين ونيف عاشت الأمبراطورية الرومانية أزهى عصورها ، ثم بعد ذلك أخذت مظاهر الضعف تبدو عليها ، وقد جرت عدة محاولات للاصلاح ، والذى يهمنا هنا هو تتبع هذه المحاولات منذ اعتلاء دقلديانوس عرش الامبراطورية سنة ٢٨٤ م .

ففي ايام هذا الامبراطور كانت قد اختفت مظاهر الديمقراطية في الحكم وغدت السلطة في حوزة مجموعتين واحدة مدنية واخرى عسكرية ، وكان لكل مجموعة احوالها الخاصة ومشاكلها ، وحين استلم دقلديانوس عرش الامبراطورية لم تكن هذه الامبراطورية تعاني من المشاكل الداخلية فحسب ، إنما كانت تعاني من ضغوط خارجية تمثلت في شعوب أوربة المجاورة أراضيها لروما ـ الشعوب الجرمانية ـ وبالامبراطورية الفارسية .

وقد سعى دقلديانوس الى دفع المخاطر عن امبراطوريته والى القيام بالعديد من الاصلاحات الداخلية ، خاصة في ميادين

الادارة ، لكنه اخفق مثل غيره في مواجهة المشاكل المالية للدولة ، فقد ازدادت نفقات هذه الدولة وضعفت موارد التجارة وتضاءل نشاط التجار لانعدام الأمن في كثير من المناطق ، ونظرا لازدياد الحاجة الى المال قامت الدولة بفرض المزيد من الضرائب مما زاد في التفاوت الطبقي والاستغلال ودفع نحو المزيد من الشكوى والتحرك الثوري .

وفي أيام دقلديانوس أدرك هذا الامبراطور ان مستقبل دولته لن يستمر في أوربة ، بل في الشرق ، لذلك نراه يتخلى عن روما ويتخذ من ميلان عاصمة ومركزا ، كل هذا في حين اهتم به بالمقاطعات الشرقية واتخذ لهذه المقاطعات مركزا اداريا خاصا في مدينة نيقوميديا على بحر مرمرة ، وبذلك وضع اللبنات الأولى في عمل تقسيم الامبراطورية الى قسمين غربي واخر شرقي العمل الذي سيتم على أيدي خليفته قسطنطين الكبير .

لقد قسم دقلديانوس امبراطوريته الى اربعة اقاليم ادارية كبرى كان على رأس كل اقليم حاكم يلقب «اوغسطس» او يلقب قيصر وهذا أوجد لدولته امبراطورين مع نائبين لهما .

وعندما بلغ دقلديانوس الستين من عمره تخلى سنة ٣٠٥ عن العرش لقسطنطين الكبير ، وقد اعقب نزول دقلديانوس عن العرش قيام حروب اهلية استمرت سبعة عشر عاما ، وبعد ما تحقق لقسطنطين النصر في هذه الحروب اخذ على عاتقه اكمال تنفيذ خطط سلفه الاصلاحية ، وكان لأعماله في هذا المجال أعظم الآثار في الانتقال من العالم القديم الى العالم الوسيط ، فقد اعترف بالمسيحية ثم تبناها وتخلى عن روما القديمة واستبدلها بروما جديدة بناها على ضفاف البسفور ، وقد حملت روما الجديدة اسم قسطنطين فعرفت بالقسطنطينية وهي مازالت تعرف بهذا الاسم ، وعلى الصعيد الاداري أدخل قسطنطين نظام الحكم الوراثي ، فصار منصب الامبراطور وراثيا محصورا في اسرة من الأسر تعتمد على دعامتين هما الجيش والكنيسة.

وسندع امر الحديث عن دوافع قسطنطين في سياسته الدينية إلى مكان اخر ، لكن ينبغي الا يفوتنا تقرير أن إقدام قسطنطين على بناء عاصمة جديدة لدولته وهجرة العاصمة القديمة قد طوى صفحة من التاريخ ارتبطت بمدينة روما ، وانذاك تركت روما بدون امبراطور فعال ، فقامت البابوية وسعت لتحل محل الامبراطورية ، ولولا هذه الخطوة لما استطاعت البابوية الوصول إلى ماوصلت إليه من عظمة ونفوذ في العصور الوسطى .

إن اتخاذ القسطنطينية ذات الموقع الحصين عاصمة للامبراطورية وقيام الامبراطورية الرومانية الشرقية قد صان كما يقال عادة أوربة من الفتح الاسلامي فقد حالت القسطنطينية بين العرب المسلمين وبين دخول أوربة الشرقية .

وبعد وفاة قسطنطين عانت الامبراطورية من العديد من الحروب الأهلية وازدادت الضغوط الخارجية عليها ، كما تعقدت المشاكل الاجتماعية ، فقد تضاعف عبء الضرائب وكثر عدد العبيد العاملين في الصناعة والزراعة وتضاءل عدد الأحرار ، وانحطت أحوال المدن ، لقد كانت الامبراطورية تسير ببطء نحو نهايتها المحتومة ، وكانت تعاني الام الموت .

ومع نهاية القرن الرابع انقسمت الامبراطورية إلى قسمين ، وصار القسم الشرقي متميزا عن الغربي دينيا ولغويا وحضاريا ، ففي هذا القسم وجدت اللغة الاغريقية بينما استمرت اللاتينية ـ إلى أمد ـ في الغرب وقامت في روما القديمة الكاثوليكية ، واستمرت في الشرق الحضارة ذات الأصول الهلنستية ، في حين اخذت أسباب الحضارة والثقافة في الغرب تضمحل بشكل متتابع ، وهكذا نلاحظ أن عوامل مختلفة تضافرت على إسقاط الامبراطورية الرومانية وإنهاء العصور القديمة وابتداء العصور الوسيطة ، ولقد تميزت العصور القديمة بمزايا حضارية وفكرية خاصة ، في حين نجد أن المسيحية كانت الصانع الأكبر

لحضارة العصور الوسطى وكانت المؤثر الأعظـم في جميع مجـالات الحياة فما هي قصة هذه الديانة ؟ .

المسيحية والعالم الروماني

يرى عدد من الباحثين أن الدولة الرومانية وصلت إلى ذروة قوتها وعظمتها أيام حكم أوغسطس الذي كان أول أباطرتها ، ويرى بعضهم الآخر أن الدول بعد وصولها إلى الذروة لاتمكث هناك طويلا بل تأخذ بالانحدار ليس في طريق العودة نحو الأصول لكن في الانحدار نحو النهاية .

وفي أيام أوغسطس حققت روما أمجادا عسكرية طائلة ، لكن المجتمع الروماني الذي كان سيده صاحب السيف عانى آنئذ من الانحلال الفكري والعقائدي الديني ، فلم تعد الديانة الرومانية الوثنية الملفقة من عدة ينابيع وأصول بكافية لمتابعة الأخذ بها ، كما أن المدارس الفلسفية من رواقية إلى أفلاطونية حديثة لم تستطع تقديم الزاد الروحي لشعوب الامبراطورية ، وقد استعار الرومان من ديانات الشرق القديم الشيء الكثير ، وكان هناك بالاضافة للديانات الوثنية الديانة اليهودية ، لكن هذه الديانة بانغلاقها على اتباعها ، وبما لحقها من انحرافات عجزت عن أن تقوم بدور فعال داخل المجتمع الروماني ، وعلى هذا نجد أن المجتمع الروماني كان يعاني من الفراغ الديني الروحي ، ونلاحظ قيام العديد من المحاولات لملىء هذا الفراغ ، وغالبية هذه المحاولات صنعت في الشرق ، وقد تحقق لواحدة منها فقط نجاحا كبيرا .

ففي أيام أوغسطس ولد السيد المسيح عيسى بن مريم في بلدة بيت لحم في فلسطين ، ولد كما هو مجمع عليه في كافة المصادر من أم عذراء لم يمسسها بشر قط ، وهناك خلاف حاد في المصادر حول الحياة المبكرة وحتى المتأخرة للسيد المسيح ، لابل إن الخلاف شمل كافة مراحل حياة المسيح فأدى ذلك ببعضهم إلى إنكار وجوده

تاريخيا ، والذي اعتدل قال بأن المعلومات المتوفرة حوله في المصادر المسيحية فيها زيف كبير واختراع ، ومهما يكن الحال فإنه من المؤكد أن رسالة المسيح كانت طوال حياته عبارة عن حركة إصلاحية داخل الديانة اليهودية ، أي كانت حركة محلية ضيقة ، على أنه بعد غيبة المسيح (وبعضهم يذكر في أيامه الأخيرة) نقلت الحركة إلى العمل العالمي ، ومن المؤكد أن الذين تولوا عمليات نشر المسيحية في العالم هم غير المسيح ، ولقد كان لعمليات النشر هذه إنعكاسات متميزة على العقيدة المسيحية تبعا للزمان والمكان ، وخلال قرون ثلاثة اضطرت المسيحية أولا للرومنة بشكل عام وللتأقلم مع كل قطر وبلد بشكل منفرد ، فكان نتيجة لهذا قيام عدة ديانات مسيحية متصارعة وهكذا إن الصراع بين الديانات المسيحية كان واحدا من أهم مميزات العصور الوسطى وصانعا لأحداثها .

إن معلوماتنا عن تاريخ المسيحية في عصورها الأولى هي معلومات غير مؤكدة ، ثم إن المتوفر من الأخبار عن انتشار المسيحية والطرق التي اتبعتها أيضا غير كافية فيها الكثير من الغموض ، على أنه برغم كل هذا نجد من الثابت أن الفضل الأول في تنظيم المجتمعات المسيحية الأولى ووضع قواعد اللاهوت وما يرتبط من مبادىء المسيحية الخلقية مع أمور الحياة والموت وغير ذلك يعود هذا إلى القديس بولس ، وهو أيضا المنظم الأول للكنيسة وباني أركانها الأولى .

وقد سهل على المسيحية الانتشار في العالم الروماني توفر طرق المواصلات مع توفر الأمن واستتبابه ، وزيادة على ذلك اعتماد جميع مقاطعات العالم الروماني لاحدى لغتين وهما : اللاتينية والاغريقية ، وقد يسر هذا نشر المسيحية ، لكنه منذ البداية فصمها فكان هناك مسيحيتين : لاتينية واخرى إغريقية .

ولم تعارض الامبراطورية في البداية اعمال التبشير بالمسيحية ، فالسياسة الرومانية سمحت بحرية المعتقد ، وشرطت على المواطن الروماني الاعتراف بالآلهة الكبار للدولة وعبادة الأمبراطور ، وعدم

القيام بنشاط يهدد الأمبراطورية ، ولكن مـا إن انتشرت المسـيحية حتى بدأت المشاكل فالنصارى مثلهم مثل اليهود رفضوا الهة الديانة الوثنية الرومانية كما رفضوا عبادة الامبـراطور ، كمـا أخـذوا في رفض الخدمة في الجيش الروماني ، وكان لهذا ردات فعـل مـن لدن السلطات الرومانية ، مما دفع النصرانية إلى العمل بـالسر وأخـذ أتباعها بممارسة الطقوس بشكل سري ، وكوّن النصارى تجمعـات سرية ، ولاشك أنه كان لذلك أكبر الآثار على تطور العقيدة المسيحية وأدخل عليها الشيء الكثير من العقائد والأفكار الغريبة عن أصولها .

ومع ازدياد انتشار المسيحية أخذت الدولة الرومـانية في اعتبـار هذه الديانة ديانة ممنوعة وخطرة ، وحـظرت اعتناقهـا وممـارسة طقوسها ، وأخذ أصحاب السلطة الرومـان في رومـا والأقـاليم في ملاحقة النصارى والتنكيل بهم بشتى السبل من تحريق وتعـذيب ، وتحدثنا المصادر عن قيام نيرون باحراق العديد من النصارى وكذلك اقدام غيره على ذلك ، ولاقت المسيحية في أوائل تاريخها الرواج بين مختلف طبقات المجتمـع الرومـاني خـاصة بين الطبقـات الدنيا ، والمسيحية كعقيدة تقضي بالتسليم وعدم المناقشـة ، وهـي بهذا مناقضة للعقائد المستندة الى الفكر الفلسفي وهي التي سـادت المجتمع الرومـاني ومـن قبله الاغريقـي ، وكان معنى انتشـار المسيحية ثم انتصارها النهائي الحاسم انهـاءا للعصـور القـديمة الكلاسيكية وبداية عصور جديدة يتحكم بها الفكر المسيحي ، وهي العصور التي تسمى بالعصور الوسطى .

واثناء انتشار المسيحية لم تـكن السـلطات الرومـانية تشـكل التحدي الوحيد لهذه الديانة ، بل أضيف اليها الافلاطونية الحـديثة واليهودية والغنوصية ثم المانوية وغير ذلك من العقائد ، واستطاعت المسيحية خلال صراعها مع هذه العقائد ان تكتسب منها الشيء الكثير وتتبناه وهكذا فـان عمليات الصراع هـذه مـاكانت الا عمليات بناء للعقيدة المسيحية وتكوين لها ، برغم أن هذه العمليات أبعدتها كثيرا عن أصولها الأولى ولذلك قبع السيد المسيح في أقصى الزوايا الباهتة لهذه الديانة وأصبح مع الأيام صورة خيالية غير فعالة ، وهذا الحال

هو الذي دفع العديد من الباحثين في العصر الحديث الى القول بانه شخصية لم توجد تاريخيا .

ومع نهاية المائة الثالثة للمسيح غدت الديانة المسيحية باتباعها داخل الامبراطورية الرومانية قوة ليس فقط لايمكن قمعها لابل لايجوز تجاهلها والاستهانة بها ، وقد دفع هذا العديد من الساسة الرومان الى اعادة النظر في مواقفهم من النصرانية واتباعها ، وخاصة ايام الأزمات الداخلية والحروب الأهلية ففي سنة ٣١٣ م اصدر الامبراطور قسطنطين مرسوما في ميلان عرف فيما بعد باسم مرسوم ميلان - اعترف به بالمسيحية كشريعة قانونية يحق لاتباعها ومعتنقيها اعلانها وممارسة طقوسها بكل حرية مثلها مثل بقية الديانات ، ولقد كان لهذا المرسوم ابعد الآثار ويرى بعضهم فيه التاريخ الذي انتهت فيه العصور الكلاسيكية القديمة وبدأت به العصور الوسطى ، وقد اختلفت الأراء حول الدوافع التي دفعت قسطنطين العظيم الى اصدار مرسوم ميلان الشهير متذكرين ان الامبراطورية الرومانية قامت على اساس الوثنية مع عقيدة تألية الامبراطور ، واذا تذكرنا بالمسيحية ما نزل من نوازل ، فان مرسوم ميلان لم يقض على مكانة الوثنية الرومانية فحسب ولم ينه عهد الاضطهاد بل هيأ الفرص امام المسيحية في سرعة الانتشار ، ونقلها من مكانة الملاحق من قبل السلطة الى مكانة المدعوم من قبل السلطة ، ثم الى السلطة ذاتها ، وهكذا سارت النصرانية على سنن غيرها من الديانات السالفة ، فغدت الى حد كبير احدى ادوات السلطة الزمنية الكبرى ، لابل أكبر الأدوات ، ولم تكن هذه الأداة في جميع الحالات مطواعة ، لكن غالبا ما جعلت كذلك،وتاريخ العصور الوسطى في أوربة والامبراطورية الرومانية الشرقية هو تاريخ السلطة ومشاكلها وطرق استخدامها لهذه الأداة .

ومن هنا جاءت أهمية اعتراف قسطنطين بالمسيحية ، وليس من باب المغالاة ان قال بعض الباحثين بان العصور الوسطى بدأت مع

اعتراف قسطنطين ، وربطوا هذا ببناء القسطنطينية التي جعلها قسطنطين عاصمة روما الشرقية ، ومعلوم ان العديد من الباحثين يرى ان العصور الوسطى قد انتهت مع سقوط القسطنطينية للمسلمين .

ومرة اخرى ما هو الحافز الذي حدا بقسطنطين الى اصدار مرسوم ميلان ، هل كان ذلك اعتناق هذا الامبراطور للمسيحية وايمانه بها ؟ هذا مايراه بعضهم ، وهذا ما ينفيه بعضهم الآخر الذي يثبت ان قسطنطين لم يتنازل عن مكانته في العبادة من قبل رعاياه ، وظل طوال عهده وثنيا ، والذي دفعه الى ذلك حاجته السياسية لدعم النصارى فهو قد فهم مشاكل عصره ، وادرك موازين القوى في عالمه ، فأراد ان يتحكم بهذه الموازين ويستغلها لصالحه ولصالح أهدافه ، لكن عندما نقل قسطنطين العاصمة الى الشرق ترك روما لقدرها الذي حكم عليها بالسقوط وهي مدينة الشيطان ليقوم مكانها مدينة الله على حد قول القديس اوغسطين ، فروما التي خلت من الامبراطور قام فيها البابا وسعى البابا ليأخذ مكان الامبراطور ، ولاقى مسعاه هذا العديد من العقبات ، فبذلت البابوية كل طاقاتها في سبيل تذليل جميع العقبات ، ودخلت حلبة كل صراع ، وعلى هذا فان احدى مزايا العصور الوسيطة قيام البابوية في روما وصراعها مع الامبراطورية البيزنطية ومع حكام أوربة الغربية في سبيل مد نفوذها وجعله يشمل العالم أجمع كما كان حال اباطرة روما العظام .

ولقد شهدت المسيحية منذ اوائل عهودها خلافات مذهبية عميقة للغاية كان لها اثارها الخطيرة على تاريخ أوربة والشرق معا وليس المكان الآن هو لدراسة هذه الخلافات بشكل مفصل ، انما سنكتفي بالاشارة اليها حسب الحاجة ووقت المناسبة .

وكانت كبريات مشاكل الخلاف تتعلق بطبيعة الاقانيم الثلاثة : « الآب » « الابن » « روح القدس » مع طبيعة العلاقة بين هذه الأقانيم وطبيعة السيدة العذراء أم عيسى ، وبدات المشاكل عندما

واحدة من أثيرا الى فيليا (فيليا موقع على شاطىء البحر الأسود) وكان عليها التربص حتى وصول رسل غودفري وهم في طريقهم الى بوهيموند وبقية الأمراء وحدث في نفس ذلك الوقت الحادث التالي: وجه الامبراطور الدعوة الى بعض الأمراء الذين كانوا برفقة غودفري لمقابلته ، وابتغى من وراء ذلك أن ينصحهم بأن يحرضوا غودفري على تقديم يمين الولاء للامبراطور ، واضاع الأمراء اللاتين ـ كما جرت عادتهم ـ الوقت كله بكلماتهم الجوفاء المعتادة ، وبولعهم بالقاء الخطابات الطويلة ، ولذلك انتشرت اشاعة كاذبة وراجت حتى وصلت الى الفرنجة ، و كان فحواها بأن الأمراء قد اعتقلهم الكسيوس ، لذلك ما لبثوا أن ثاروا واخذوا يزحفون في صفوف متتالية نحو القسطنطينية ، مبتدئين بالهجوم على القصور القريبة من البحيرة الفضية (١٥) ، فدمروها تدميرا كاملا ، ثم هاجموا اسوارها لكن ليس بالمنجنيقات ـ ذلك انه لم يكن لديهم هذا السلاح ـ إنما بكتلهم اعتقادا منهم انهم بأعدادهم الكبيرة يمكنهم اشعال النيران في البوابة التي دون القصر (١٦) على مقربة من مشهد القديس نيقولا (١٧) ولم يكن سواد العامة في بيزنطة وحدهم الذين تولاهم الهلع ، نظرا لعدم معرفتهم بفن الحرب ، ولهذا ضربوا صدورهم وانتحبوا عندما راوا صفوف اللاتين ، بل استولى الرعب حتى على الجماعات المقربة من الامبراطور والشديدة الاخلاص له ، متذكرين يو م الخميس الذي سبق وتم الاستيلاء به على المدينة (١٨)وكانوا يخشون أن يحل بهم في هذا اليوم الانتقام (١٩)(بسبب ما حدث لهم يومذاك) وتسارع جميع الجنود المدربين نحو القصر في فوضى ، لكن الامبراطور بقي هادئا: فلم يحاول التسلح ، أو حتى وضع درع على جسمه ، أو حمل ترس أو رمح بيده ، أو اشهار سيفه ، بل جلس بكل هدوء وثبات على العرش الامبراطوري ، ينظر اليهم بوجه مشرق ، مشجعا اياهم ، وباثا الروح العالية والطمأنينة في قلوبهم ، وكان الامبراطور في تلك الساعة مجتمعا مع اقربائه وكبار القادة للبحث والتشاور حول خطط المستقبل ، وقد اصر ـ بالدرجة الأولى ـ على أنه ينبغي الا يغادر شرفات الأسوار لقتال اللاتين

حدة والتمزق سعة وذلك لانعدام الرابـط الموثـق ولتـوفر الأهـواء والمطامع .

لقد حضر مجمع نيقية حوالي ثلاثمائة من رجال الدين النصـارى وترأس الامبراطور نفسه جلسات المجمع مع أنه لم يكن معمدا ومـا زال وثنيا ، وأدان مجمع نيقية أريوس وقـرر اعدام كتـاباته ونفيه وملاحقة اتباعه ، وفعلا نفي أريوس ، لكن ذلك لم يؤثـر كثيرا على عقيدته ، فقد ظلت منتشرة في الشرق ، ومن الشرق سيتم نقلهـا إلى الشعوب الجرمانية في أوربة ، ونظرا لكثرة أتباع أريوس فقـد قـام الامبراطور عام ٣٢٧ م باستدعاء رجل الدين هذا من منفاه ، ولعـل من دوافع الامبراطور لاتخاذ هذه الخـطوة قـوة اتبـاع أريوس في الشرق ، واعتزامه نقل العاصمة إلى القسطنطينية ، وهـذا يعني أن الامبراطور قسطنطين كان على استعداد لتغيير ميوله الدينية المعلنة وذلك حسب الظروف الطارئة ، وحسب الحاجة السياسية وفي سـنة ٣٣٤ عقد مجمع ديني جديد في مدينة صور وفيه تـم نقض قـرارات مجمع نيقية السالفة وأصـدر العفـو عن أريوس ، وتـم حـرمان اثناسيوس ونفيه ، وفي سـنة ٣٣٦ تـوفي اريوس في القسـطنطينية بشكل مفاجيء مما أحزن اتبـاعه وجعلهـم يعتقـدون انه مـات مسموما ، ومما اثلج صدور خصومه فعـدوا ذلك ضربـة الهية حلت به ، ولم يلبث الامبراطور قسطنطين بعد أريوس طويلا فقد تـوفي في العام الثاني أي سنة ٣٣٧ م .

وكان قبل وفاته قـد قسـم الامبـراطورية بين ابنائه الثـلاثة : قسطنطين الثاني ، وقسنطيوس وقنسطانز ، وكان لهذا اثـاره على الكنيسة فقد دعم كل واحد من هؤلاء كنيسة بلده ووجهها ضد كنيسة الآخر فدعم صاحب القسطنطينية الأريوسية حتـى أيام امبـراطور أورثيودسـيوس (٣٧٩ ـ ٣٩٥ م) فقـد دعا هـذا الامبـراطور سنة ٣٨١ الى مجمع ديني عقد في القسطنطينية ، وفيه تـم تحـريم الآريوسية وملاحقة اتبـاعها والتنكيل بهـم في كافـة انحـاء الامبراطورية .

وعلى الرغم من الصراع الداخلي بين النصارى فقد حققت المسيحية في مدة وجيزة بعد قسطنطين انتصارا ساحقا على الوثنية الرومانية فتم الغاء هذه الديانة ومصادرة معابدها ، وكان لهذا النصر نتائج كبيرة استدعت تنظيم العلاقات بين الدولة والكنيسة ، كما تم تنظيم الكهنوت داخل الكنيسة ، واخذت الكنيسة في السعي لتامين الموارد المالية لنفقاتها ، فقامت بحيازة الأملاك ونيل الامتيازات العظمى فغدت بعد فترة وجيزة غنية جدا تمتلك موارد هائلة ، وغالبا ما تم استغلال هذه الموارد لغايات فردية ومطامع ذاتية لبعض الكهنة ورجال الدين .

وفي هذا الوقت قامت الكنيسة باصدار دراسات لاهوتية دينية وسعت نحو استهواء المثقفين والمفكرين ، وبذلك قامت قواعد اللاهوت المسيحي ، وأخذ هذا اللاهوت يحل محل التراث الفلسفي للعصور السالفة .

ولقد قمنا خلال حديثنا هذا كله بذكر البابوية في اكثر من مناسبة ، لذلك يحسن بنا القيام بالحديث عن هذه المؤسسة وذكر تاريخها بشكل منفرد .

تطلب التيار الانفصالي الذي انساقت فيه الكنيسة قيام مؤسسة لاهوتية قوية في مكان استراتيجي له خلفية تاريخية لتقود عمليات الصراع ، فكان أن قامت البابوية في الغرب مستغلة الانفصام الحاد بين الشرق والغرب ، وقامت في روما عاصمة الامبراطورية العتيدة التي اختفى فيها عرش الامبراطور الاله ، فكان أن حل محله عرش الامبراطورالحبر الاعظم خليفة السيد المسيح .

لانملك من المعلومات ما هو مؤكد وواضح للتاريخ للعصور الاولى لاسقفية روما وكل ما نعلمه ان حواريي السيد المسيح ورسله انتشروا في الأرض واستقر بعضهم في كبريات مدن العالم الروماني ، وهناك اسسوا قواعد كنائس ، ونظرا لندرة المدن الهامة في الغرب وكثرتها في الشرق فاننا نجد الكنائس المنسوبة الى الرسل في الشرق اكثر منها في الغرب وهي كنائس القدس وانطاكية

والاسكندرية ، ولم يوجد في الغرب الا روما وقد نازعهـا في البـداية قرطاجة ، لكن كما تغلبت روما الوثنية على قرطاجة وقهرتها من قبل تغلبت كنيسة روما على كنيسة قرطاجة فانفردت في العـالم الغـربي وتفردت في نيل الزعامة ، وكان عليهـا أن تتصـدى لكنائس الشرق وخاصة الكنيسة التي احدثت في القسطنطينية بعد اتخاذها عاصـمة للامبراطورية الرومانية الشرقية وربطت كنيسـة رومـا تـاريخها بالقديس بطرس ،وكان اسمه الاصيل سمعان ، لكن روي أن السيد المسيح دعاه بطرس أي الصخرة ،وقال بأنه الصخرة التي سـتبنى عليها كنيسة الرب ، وعلى هـذا أعطـاه تفـويضا بسـيادة الأرض وأعطاه أيضا مفاتيح السماء فجعله زعيما للرسـل ومقـدما عليهـم جميعا ،لذلك فان كنيسته هـي مقـدمة على غيرهـا مـن الكنائس ورئيسها زعيم لجميع كهنة الديانة المسيحية في العالم.

إنما معظم هذه الحجج قد قـدم بعـد انتصـار المسـيحية وقيام الصراعات الداخلية فنحـن لانملك إلا نادر المعلومـات عن أسـاقفة روما في القرنين الأول والثاني لكن بعد قسطنطين أخـذت المصـادر تشير إلى بعضهم وإلى ماقاموا به من أدوار ومن هؤلاء داماسوس الأول (٣٦٦ ـ ٣٨٤ م) الذي صنف مؤلفا دافـع فيه عن مـكانة كرسي روما الكنسي وأكد فيه على زعامتها على سواها ، وفي أيامـه تـرجم الانجيل إلى اللاتينية ، ومـن عهـد خليفتـه سيركيوس (٣٨٤ ـ ٣٩٩) ترجع أقدم المراسيم البـابوية التـي وصلتنا وبعدهما اشتهر البابا ليو العظيم (٤٤٠ ـ ٤٦١ م) حيث تم في عهده الاعتراف بسيادة كنيسة روما على غيرهـا مـن كنائس الغرب .

وفي هذا الوقت قال أباطرة القسطنطينية بـالمساواة بين كنيسـة روما وكنيسة القسطنطينية الحـديثة واسـتمروا في عقـد المجـامع المسكونية لمعالجة هذه القضية ودعمهـا ففـي مجمـع خلقـدونية عام (٤٥١) أصر الأساقفة المشارقة على هذه المسـاواة ، في حين رفض مندوب البابا ليو ذلك واستشهد بقرارات مجمع نيقية في تقـدم

روما على سواها ، ومع الأيام ازداد تمسك بابوات روما بـدعواهم ففي سنة (٤٥٥) أصدر الأمبراطور فالنشيان الثالث إمبـراطور الغرب مرسوما يقضي بخضوع جميع أساقفة الغرب للبابا .

وقد زاد من مكانة كنيسة روما وتفردها في الغرب ازدياد التجـاء الناس في الغرب إلى أسـاقفة هـذه الكنيسـة لفض الخصـومات واستئناف الأحكام الدينية للكنائس الأدنى ، وقد حازت كنيسة روما ثروة كبيرة جدا ، وسـاعدتها هـذه الثـروة على التحـكم وتنفيذ مشاريعها الأمبـراطورية ، وأخيرا عندمـا سـقطت الأمبـراطورية الغربية عام ٤٧٦ م خلت روما إلا من البابا فتفرد بسلطانه .

وتحققت السيادة الفعلية لروما على كنائس الغرب في عهد البـابا غريغوري الكبير (٥٩٠ ـ ٦٠٤ م) وقد حدث هذا في وقت تعمقت فيه الخلافات مع الكنيسة الشرقية حول تفسير طبيعة المسيح وعلاقة عنصر الناسوت فيه بالعنصر اللاهوتي ، ففـي سـنة ٥٣١ م أدان مجمع أفسوس الآراء القائلة بفصل الطبيعة البشرية عن اللاهوتية ، وقد تزعم رجال الكنيسة الجماعات القائلةبالطبيعة الواحدة مـع أن مجمع خلقدونية ٤٥١ م أدان مذهب الطبيعة الواحدة وأخذ بـالرأي بوجود طبيعتين للمسيح ، وهو المذهب الذي سيعرف بالملكاني وقـد استمرت هذه المشـكلة كينبـوع دائم لمسـائل الخـلاف بين كنائس الشرق والبابوية وكانت مشاكل الخلاف هذه مزية أساسية من مزايا تاريخ العصور الوسطى .

الامبراطورية الرومانية والشعوب البربرية

لقد قمنا حتى الآن بفحص عدد من القضايا التي ساهمت في جلب نهاية الأمبراطورية الرومانية وبالتالي ، نهاية العصور الكلاسيكية ، ومن ثم بداية العصور الوسطى ، وفي الحقيقة جميع ماتناولناه قد ساهم في جلب نهاية هذه العصور لكنه لم يقم بتسديد الضربة التي أجهزت على روما وإسقطت عرشها الأمبراطوري ، لقد كانت شعوب أوربة البربرية هي التي عجلت بدنو نهاية العصور الوسطى ، وسددت الضربة القاضية إلى عرش روما ، فما هي قصة العلاقة بين روما والشعوب البربرية ، وما هو المقصود بلفظه بربرية ؟

كان الناس بالنسبة للرومان وقبلهم بالنسبة للاغريق يقسمون إلى قسمين : الشعب الروماني ، والشعوب البربرية ، ذلك أن الشعب الروماني عد نفسه شعبا متحضرا متقدما وماسواه أدنى منه مرتبة وأقل مكانة ، وقد رأى بعضهم أن لفظة بربرية تعني التوحش وعدم معرفة الحضارة ، والحقيقة ليس الأمر كذلك تماما إنما المرجع أن المقصود كان الشعوب ذات النظم القبلية والحياة البدوية ، فقد كانت أراضي الامبراطورية الرومانية كلها في أوربة وأسية وإفريقية محاطة بشعوب ذات نظام عشائري بدوي ، تكون لدى هذه العشائر الأسرة عادة النواة الأولى في المجتمع ، والأب هو سيد الأسرة وله حرية التصرف تجاه زوجته وأولاده ، حتى أنه كان يستطيع بيعهم أو تأجيرهم أو رهنهم ، وسيد الأسرة هو المسؤول بالوقت نفسه عن أسرته من كافة الوجوه ، وغالبا ما كان رب الأسرة يمارس صناعة الفروسية والصيد والقتال ويترك أمور تربية الماشية للنساء ، كما يترك أمور الزراعة إن وجدت للعبيد ، وعلى هذا فعمل العبيد هنا يختلف عنه لدى الشعب الروماني ، فالعبيد

لايقومون بـالخدمات المنزلية ، ذلك أن منزل البـدوي لايحتـاج إلى خدمات كبيرة .

وتكون عدة أسر عشيرة ، وتكون عدة عشائر قبيلة ، وتـكون عدة قبائل شعبا من الشعوب البدوية ، والسـيادة في العشـائر للأكثـر شجاعة ونبلا وكرما وأريحية ، وسيد العشائر والقبائل هو مقدم بين مقدمين ، ولم تعرف الشـعوب البـدوية في مـراحل حياتهـا الأولى مبادىء توريث الزعامة ، وعندمـا عرفتهـا غدت الزعامـة مـرتبطة لابثروة أو أملاك إنما بعدد الأتباع والشجاعة ونبل المنحدر ، وشغل نبل النسب الدور الأعظم في تسهيل الوصول إلى الزعامة .

وكانت غالبية الشـعوب البـربرية وثنية ، لكن شـعوب أوربـة البربرية كانت تعرف الأمبراطورية الرومانية كما أن الرومـان كانوا يعرفون هذه الشعوب ويتعـاملون معهـا ، وكانت غالبية الشـعوب البربرية الأوربية من أصول جرمانية أو كلتية ، وفي الحقيقـة لم يكن هناك خط واضح يفصـل بين الشـعوب البـربرية وشـعوب الأمبراطورية الرومانية ، ففي القـرن الرابـع لم تفصـل حـدود الأمبراطورية بين شعبها المتحضر والشعوب البربرية ، بـل شـملت الأراضي الرومانية بعض المقاطعات التي سكنت فقط من قبل شعوب بربرية مثل غاليا (فرنسا) وبريطانيا ، ونجد منذ القـرن الرابـع للميلاد مجموعات من المرتزقة من أصـل جـرماني تخـدم في فـرق الجيش الروماني العاملة والاحتياطية ، كمـا نجـد عددا كبيرا مـن كبار ضباط الجيش الروماني كانوا من أصل جرماني ، وقـد جـاء النبلاء الرومان بأعداد مـن أفـراد الشـعب الجـرماني ليعملوا في ممتلكاتهم كخدم ومستعمرين ، وعلى هذا كانت الحضارة الرومانية متغلغلة في عمـق الأراضي البـربرية وبعيدا عن الحـدود السـياسية للأمبراطورية الرومانية ، وهنا علينا أن نتذكر أن العقل الرومـاني كان عقلا سـياسيا ، لذلك فإنه رغم قـربهم مـن عدد مـن البلدان البربرية بدرجات متفاوتة فإن الرومـان لم يعملوا على تقـوية هـذه الحالة واستغلالها ، لادراكهـم عجـزهم عن القيام بحـكم البلدان

البربرية ، والحقيقة أن عمليات رومنة الشعوب البربرية بشكل مكثف لم تتم من قبل السلطات الرومانية لكنها تمت فيما بعد على ايدي البعثات التبشيرية المسيحية .

ومن الملاحظ انه في القرن الرابع كانت الشعوب الكلتية عبارة عن مجموعات ضعيفة وبقايا شعب كان في القرون الماضية قويا جدا تحكم بالأراضي الممتدة من وسط المانيا مع بلاد البلقان وحتى شواطىء المحيط الأطلسي ، وقد طور هذا الشعب حضارة متقدمة بعض الشيء ، فقد كان أفراد من هذا الشعب يحسنون صناعة المعادن والأسلحة وتحليتها ، لكن على العموم نجد هذا الشعب في أيام غزو يوليوس قيصر لغاليا وبريطانية أضعف عسكريا من الشعوب الجرمانية ، ونتيجة لذلك فقد أزاحهم الجرمان من معظم أراضيهم شرقي نهر الراين وأجبروهم على عبوره ، وقد قامت روما

في القرن الأول الذي سبق المسيح بغزو غاليا وبريطانيا ، وتمكنت روما من احتلال معظم اجزاء انكلترا وولز لكنها لم تتمكن من احتلال اسكوتلندا وايرلندا وفي ايرلندا انحصرت معظم بقايا الشعب الكلتي ، وقد دعا الرومان ايرلندا باسم سكوتيا لأن القرصان السكوتش مع الغزاة السكوتلنديين كانوا شوكة رعب في جنب المحتلين الرومان لبريطانيا .

ويبدو أن الكلتيين لم يطوروا نظاما سياسيا متقدما، فقد بقي الناظم لديهم هو الرابط العشائري والقبلي ، وكانت ديانتهم بدائية يعبد فيها عدد من القوى الطبيعية ولها طقوس معقدة يقودها رهبان يدعى واحدهم درويد ، ولم تعرف القبائل الكلتية الوحدة بل عاشت في صراع داخلي حربي دائم ، ولعل اهم ماقدمه الكلتيون للحضارة الوسيطة كان في مجال الخيال الأدبي والقصصي والشعري الخصب ، مع أدوات معدنية وزجاجية محلاة ومزينة بنقوش ، لكن الجانب الفكري أكثر اهمية فهو الأصل الأول لقيام قصص الملك ارثر والكأس المقدسة والطاولة المستديرة .

واهم من الشعوب الكلتية وابعد خطرا في صنع تاريخ اوربة في العصور الوسطى هم الشعوب الجرمانية ، واقدم مسكن معروف لهذه الشعوب هو الأراضي المحاذية للقسم الغربي للبحر البلطيقي مع الاجزاء الجنوبية لشبه الجزيرة السكندنافية ـ اي شبه جزيرة جوتلاند كما عرفت في العصور الوسطى ـ والسواحل الشمالية للشاطى الالماني وحتى نهر الأودر ، ومن هذه الأراضي انتشرت الشعوب الجرمانية نحو قلب اوربة ، ومع بداية عصر المسيح كانوا قد احتلوا معظم ما يعرف اليوم بالمانيا ، وقد أوقف زحف هجرتهم حدود الامبراطورية الرومانية المحصنة وخاصة في المناطق الغربية والجنوبية ، ولكن في الجنوب الشرقي لم تكن هناك تحصينات مماثلة لذلك تغلغلت اقسام من الشعوب الجرمانية الى داخل الأراضي الرومانية ، وقد تمكن الجناح الشرقي للشعوب الجرمانية من عبور المناطق المدعوة الآن ببولندا وأوكرانيا حيث احتل السهوب الواقعة الى شمال البحر الأسود ، وفي القرن الرابع للميلاد واجهت الشعوب الجرمانية الأمبراطورية الرومانية من لدن نهر الراين حتى نهر الدون ، ففي المناطق المنخفضة للأراضي المجاورة لهذا النهر استوطنت قبائل الفرنجة ، وفي المناطق العليا القبائل الالمانية ، وفي بوهيميا وجدت قبائل المراكوني ، في حين احتل الوندال السهل الهنغاري ، ومن هناك وحتى نهر الدون عاشت شعوب القوط وخلف الفرنجة وجدت الشعوب الساكسونية وفي شبه جزيرة اسكندنافيا وجدت أصول الفايكنغ والانكليز ، والى الشرق من الساكسون وجدت قبائل اللومبارد .

ونحن حين نذكر اسماء مثل الفرنجة والساكسون فاننا لانعني قبائل بل مجموعات كبرى من القبائل كانت متشابهة في العادات والنطق ، ولكن يبدو أن الشعوب الجرمانية قبل ان تشرع في هجرتها كانت لاتختلف عن بعضها بعضا في اللغة أو العادات ، إنما بعد الهجرة قامت مجموعات مختلفة متمايزة لغويا وثقافيا واجتماعيا تبعا للبيئة والظروف التي وجدت نفسها بها ، وتضخمت هذه الفوارق وظهرت واضحة في القرن الرابع

للميلاد ، وبدت بشكل واضح بين الشعوب الجرمانية الشرقية والشعوب الغربية ، فالساكسون والفرنجة والألمان تحركت جموعهم جنوبا ، وكانت المناطق التي استقرت بها مجددا مشابهة لمواطنها السالفة ، وقد ظلوا على اتصال بالشعوب الانكليزية من الجوت (اجداد الفايكنغ)الذين لم يهاجروا لكن اللومبارديين والوندال والقوط هاجروا نحو مناطق تختلف عن بلدان شمال شرقي أوربة ، فالأراضي الواقعة في شمال البحر الأسود مع هنغاريا هي سهوب رعوية وحين جاءت الشعوب الجرمانية الى هذه المناطق غدت شعوب فرسان وأصحاب قطعان للرعي ، وكانت هذه المناطق مع سهوب جنوبي روسيا عبارة عن أراضي تفصل بين المزارع السلافية والمستعمرات الاغريقية على البحر الأسود وشعوب أسية البدوية ، وكانت تعرف الغزو الدائم ومسكونة من قبل مجموعات متباينة من الاجناس ، وعندما هاجر إليها القوط تمكنوا من قهر جميع الشعوب فيها والسيطرة عليها ، لكنهم أي القوط لم يتوطنوا ، كمستعمرين بل كانوا عبارة عن اقلية عسكرية تحكم أكثرية متباينة في كل وجه .

وكان الحال في القرن الرابع أن الشعوب الجرمانية المجاورة للحدود الرومانية كانت تقوم بالاغارة على احدى المقاطعات الرومانية فتهزم حرس الحدود وتتوغل داخل الأراضي الامبراطورية وتظل تقوم بأعمال السلب والنهب حتى قدوم نجدات من الجيوش الرومانية التي تقوم بدحرها ومصادرتها ، ومن جهة ثانية كانت شعوب الجوت والانكليز تركب البحر وتغير على السواحل الرومانية ، ولمعالجة هذه الأعمال الخطرة قامت روما بتقوية حدودها وحصونها ، وباستئجار أعداد من المحاربين الجرمان كمرتزقة في جيوشها للعمل ضد بني جلدتهم لدفعهم عن الأراضي الرومانية ، وهكذا أصبحت حدود الامبراطورية من الجانبين مقطونة بقبائل جرمانية ، وعلى العموم كان أخطر الشعوب الجرمانية على روما هم القوط ، ولقد انقسم القوط الى القوط الغربيين والقوط الشرقيين ، وقد طور القوط نظاما سياسيا متقدما

على بقية نظم الشعوب الجرمانية ، وعاش القوط الغربيون على طول شواطى الدانوب والشرقيون قامت لهم دولة امتدت املاكها من نهر الدنستر حتى الدون ، وكان القوط يتحركون تحت قيادة ملوكهم ، وفي القرن الرابع كان القوط على اتصال بالامبراطورية ، وقد قام العديد من النبلاء القوط بزيارة القسطنطينية حيث تعلموا الكثير من العادات والتقاليد الرومانية في الحياة والمعيشة.وفي منتصف هذا القرن بدأ القديس اوليفلا الذي قدم من القسطنطينية بتحويل القوط الى المسيحية ، وكانت البعثات التبشيرية التي تولت هذا العمل تتبع المذهب الأريوسي لذلك غدت الشعوب الجرمانية تدين بالنصرانية ، لكن تبعا للعقيدة الأريوسية المعادية لعقيدة البابوية .

لقد كان للقوط الشرقيين الآن جبهات ثلاث ، ففي الجنوب كانت المواجهة مع الامبراطورية الرومانية ، وفي الشمال وجد بحر البلطيق وشعوب الصقالبة (السلاف) واخيرا في الشرق وجدت شعوب آسية الوسطى البدوية ، وفي القرن الرابع كانت الأراضي الشرقية هذه مقطونة من قبل شعوب آسيوية ضعيفة ، دعيت باسم اللان ، لكن في حوالي سنة ٣٧ تدفقت من داخل آسية موجات من شعوبها التركية المغولية وكانت هذه الشعوب ذات اعداد وفيرة ومقاتلة من الطراز المرعب ، وقد عرفت باسم الهون ، وفور تدفقها اجتاحت شعوب اللان واتت لمواجهة القوط الشرقيين .

ان المعلومات المتوفرة عن المؤسسات السياسية لدى الشعوب الجرمانية الغربية قليلة ، ويبدو انهم كانوا يديرون أمورهم ببساطة متناهية فقد كان هناك محاكم عامة فيها يتم فض القضايا ، وقد تراس كل مجموعة منهم مقدم ، وكانت أهداف انظمتهم القضائية احلال نوع من النظام محل الأعمال الفردية في الاقتصاص الثاري ، فاذا ما جرح انسان آخر قام المصاب بتقديم شكوى للمحكمة ، وتقوم المحكمة بدعوة الجاني للمثول امامها واذا لم يفعل ذلك اعتبر خارجا على القانون ، وهنا صار بامكان المجني عليه

الانتقام وغدا ذلك مخول له قانونيا ، وفي حال امتثال الجاني أمام المحكمة يستطيع تبرئة نفسه اذا جاء بعدد من الشهود يشهدون بعد اقسامهم الايمان انه لم يقترف جرما ، لكن اذا أخفق في البرهنة على براءته كان عليه أن يدفع الدية تبعا لتعريفة ثابتة ، وطبعا اختلفت هذه التعريفة تبعا لنوع الجريمة والناس المتورطين بها .

وكانت وظائف الرئيس أيام السلم قليلة لاتتعدى رئاسة المحكمة ، ذلك انه وجد بالأصل ليقود جماعته وقت الحرب ، وعندما كان يعزم مقدم جرماني على القيام بحملة ما ، كان يدعو شجعان قومه لكي يصاحبوه في مغامرته ، وكان هؤلاء يقسمون على خدمة رئيسهم بصدق وذلك مقابل تزويده إياهم بالسلاح والطعام والثياب وبجزء من الغنائم ، وعرفت مجموعات المقاتلين باسماء مختلفة تبعا لحجمها ونوع تسليحها ، ومهمتها ، وغالبا ما أحاط بكل رئيس حاشية خاصة كانت تصحبة في كل حل وترحال ، وكانت تقوم بوظيفة حرسه الخاص اثناء الحملات الكبيرة .

وفي العصر الحديث قام عدد من الباحثين بوصف الشعوب الجرمانية بأنها كانت شعوبا ديمقراطية ، وهذا الوصف قام على ادراك لبعض العناصر الديمقراطية الأولى لدى هذه الشعوب ، ولكن اطلاقه بشكل عام يمزج بين حالتين وهما : الحكومة الديمقراطية ، وفكرة ان الفرد يتمتع بحقوق لاتستطيع أية حكومة انتزاعها منه ، ومعروف ان الديمقراطية تعني حكم الشعب ، ومع ذلك نجد حكومات ديمقراطية تحد من حقوق الأفراد بشكل كبير يفوق ما تقوم به بعض الحكومات الاوتوقراطية ، وفي الوقت نفسه قد نجد حكومة هي ليست ديمقراطية لكنها تعتقد بأنه محرم عليها اغتصاب حقوق الأفراد وظلمهم ، وبدون شك ان الفصل في الخصومات في محكمة شعبية عامة لدى الجرمان كان عملا ديمقراطيا ، لكن عدم اعتراف القانون بالمساواة بين الجميع لم يكن ديمقراطيا .

وغالبا ما انتخب المقاتلون الجرمان رئيسهم ومقدمهم من بين صفوفهم ، لكن الاختيار كان في كثير من الأحيان يتم من بين أفراد

الأسر النبيلة بيد أنه لم توجد لدى الجرمان قواعد ديمقراطية لمحاسبة الرئيس ومشاركته في اتخاذ قراراته ، ولهذا لايجوز أن نحمل بعض العناصر الديمقراطية البسيطة في المجتمع الجرماني أكثر مما تحتمله حقا ، ولم يوجد بين الجرمان حكومات اذ لاوظائف لها بين شعب بدوي لايعرف الاستقرار والتجمع الكثيف في مكان واحد ، وعلى العموم كان الفرد الجرماني يتعشق الحرية ويكره أن يتدخل أحد في شؤونه ، وحين كان ينفذ أمرا اصدر اليه من مقدمه كان لاينفذه طاعة بل ادراكا ان ذلك لمصلحته هو كفرد من مجموعة متماسكة ، ولاشك أن حب الحرية هذا كان له آثاره البعيدة على تطور الحضارة والنظم في أوربة الغربية .

وكان بعض مقدمي الجرمان قد نال لقب « ركس »أي ملك من الامبراطورية الرومانية وعلى الأخص أولئك الذين كانوا في خدمة الامبراطورية ، أو تدفع لهم المبالغ مقابل خدمات ، وعندما عم وجود هذا اللقب بين الزعماء الجرمان فإن اولئك الذين لم تمنحهم روما هذا اللقب قاموا بمنحه لأنفسهم ، ولم يكن الملوك كلهم سواء في الواقع ، فواحد منهم قد يكون زعيم عصابة من المقاتلين حجمها متفاوت وآخر قد يكون ملكا لدولة قوطية كبيرة ، ومن الجدير بالأهمية أن نتذكر بأن العالم الروماني القديم قد عرف كلمتين نقوم الآن بترجمتها ترجمة متساوية بمعنى ملك وهما ركس وبازليوس وقد اعتاد الرومان منح لقب ركس لكل زعيم غير روماني قاموا بمنحه منصبا مع بعض الصلاحيات،لكن لفظة بازليوس كانت تعني ملكا عظيما له مكانة سامية مقدسة ، إنها كانت تعني الامبراطور لذلك لم يطلقها الرومان على أحد غير أباطرتهم ، ويمكن القول بكلمة موجزة أن لفظة ركس بين الجرمان عنت مقدما وظيفته الأساسية القيادة في الحرب.

واعتمدت الشعوب الجرمانية في حياتها على الزراعة والقتال وكانت الوحدة الزراعية هي سكان قرية ما ، كما أن الوحدة القتالية كانت هي عصابة واتباع مقدم ما ، ومن المعتقد أنه وجد لدى

الجرمان في قراهم نمطين للعمل الانتاجي الزراعي ، فالأول أن الانتاج تم بادارة القرية من قبل مقدم من المقدمين اشرف على عمال جميعهم كانوا ارقاء ، والثاني أن القرية كان يتم فيها الانتاج من قبل مجموعة من الرجال الاحرار العاديين ليس لهم مقدم أو ليس متسلطا عليهم أحد المقدمين ، وكانت الأراضي الزراعية للقرية تجعل في قسمين يزرع أحدهما هذا العام ويترك الآخر ليزرع في العام التالي ، ويترك الأول ليسترد خصوبته ، وفي القرى التي اديرت من قبل الرجال الاحرار تم توزيع الاراضي بشكل متساو بين الاسر في حين تركت المراعي والغابات مشاعا دونما توزيع ، وعاش الناس في القرية متجاورة بيوتهم ومحاطة باراضيهم الزراعية وفصلت كل قرية عن الأخرى بغابة كبيرة ، وعلى هذا يمكن الافتراض أن القرى وأراضيها الزراعية تم انتزاعها من الغابات والاحراش التي كانت تغطي أوربة البربرية

ومن الملاحظ أن الجرمان في القرن الرابع اولوا القتال عناية اكبر من الزراعة ، ذلك انه كان اسهل ان يحصل المرء على قوته بنهبه في ساعات من أن يتعب طوال العام ويشقى من اجله ، ولقد كانت الغارات على الأراضي الرومانية مربحة وممتعة في الوقت نفسه وكان افضل من هذا أن يخدم الانسان كمرتزق في الجيش الروماني ليسرق في رعاية القانون .

ويبدو أن القوط الشرقيين عاشوا في دولتهم في جنوب روسيا كمنتصرين عسكريين كان على رعاياهم تأمين كل احتياجاتهم ، ولقد كانت رغبة العيش بدون عمل دافعا اساسيا للجرمان في هجر مواطنهم وعبور الحدود الرومانية ، فلقد كان العيش في مواطنهم صعبا للغاية ، والحياة قاسية ، والصراع بين القبائل على اشده ، في حين أن الطرف الثاني من الحدود كان فيه مزارع متطورة خصبة وبلدان مزدهرة ، وإذا ما تمكن انسان من عبور الحدود كان في أسوأ الظروف يستطيع العيش من أعمال النهب ، وفي احسنها السيطرة على قرية مسالمة وادارتها والتصرف

بها والاستبداد بأهلها ، وعلى هذا لم تطمح الشعوب الجرمانية نحو اسقاط الامبراطورية الرومانية وكل ما ارادته مقاسمتها ثرواتها .

إن عمليات جرمنة المقاطعات الغربية للامبراطورية الرومانية مع رومنة الشعوب الجرمانية التي سارت ببطء وانتظام في القرنين الثالث والرابع وميزات هذين القرنين ، قد ازدادت سرعتها في القرن الخامس ، والحق أن ذلك ابتدأ فعليا بعد سنة ٣٧٠م بفضل الانقضاض الهوني على القوط الشرقيين ، واستمرت عمليات تدفق الجرمان على الأراضي الرومانية نتيجة لهذا المحرض وبالسرعة المتزايدة نفسها لمدة قرنين تقريبا ، وكانت مناحي الهجرة بشكل عام جنوبية أو غربية ، ولقد دخل الجرمان الأراضي الرومانية تحت ظل أحوال مختلفة وأسباب متنوعة لا بل متباينة ، ففي سنة ٣٧٦ م طلب القوط الفارين من وجه الهون الذين انقضوا عليهم عبر المنفذ الواقع بين جبال أورال وبحر قزوين ، طلبوا بالحاح ورجاء من الأمبراطور الروماني فالنز (٣٦٤ ـ ٣٧٨ م) أن يشملهم بحمايته وراء حدود امبراطوريته المحصنة ، وقد استجاب لطلبهم وسمح لهم رغبة في الاستفادة منهم لحماية حدود امبراطوريته من الهون ، وكان عدد الجرمان الذين اجتازوا الحدود عبر نهر الدانوب حسب بعض التقديرات يفوق المليون ومائة الف محارب ، وقد أحدثت هذه الهجرة ردات فعل عنيفة داخل الامبراطورية حيث لم يخلد هؤلاء المحاربون الى الراحة بل أخذوا ينشطون في أعمال السلب والنهب ، وعندما حاول الامبراطور وضع حد لهذا النشاط هزموه وذبحوه ، ومما هو جدير بالذكر هنا أن جميع الشعوب الجرمانية شقت طريقها عبر الحدود الرومانية بأشكال سلبية أو نصف حربية فوضوية اللهم إلا بالنسبة للانكلو ـ سكون والوندال فهؤلاء دخلوا المقاطعات الرومانية كغزاة بكل ماتعنيه الكلمة ، وشقوا طريقهم بالحرب كفاتحين عسكريين.

وفي القرن الخامس صار الحال اننا بتنا نجد معظم المقاطعات الرومانية الغربية مدارة من قبل ضباط من أصل جرماني يقودون

عساكر جـــرمانية وقـــد اعتبـــر بعض هؤلاء مثـــل الوندال والانكلو ـ سكسون انفسـهم اعداء للامبـراطورية ، في حين اعتبـر بعضهم الآخر نفسه حليفا لروما ، وكان جل هؤلاء من القوط . ذلك أن ثيود سيوس العظيم (٣٧٨ ـ ٣٩٥ م) خليفة الامبراطور فالنز تصالح مع القوط وتحالف وسمح لهم بالاقامة في عدد مـن الأقـاليم واعفاهم من الضرائب مقـابل تـأديتهم الخـدمة العسـكرية وكان السماح مقدمة لاستيلائهم على عدد من المقاطعات الرومانية وبالتالي إقامة مؤسسات ملكية فيها ، ولهذا يمـكن القـول بـأن الممـالك الجرمانية ظهـرت لأول مـرة داخـل الأراضي السـالفة حيث عاش الجرمان المهاجرون فيما سلف تحـت ظـل القـانون والنظـام الروماني ، أما الآن فقد عاشوا تحت ظل قانونهم الخاص ، ولهـذا يعتبر بعض الباحثين أن العصور الوسطى بدأت فعليا في هذا القرن.

وبعد وفاة الامبراطور ثيود سيوس كان الذين اعتلوا عرش روما الغربي عبارة عن شخصيات ذات وقع اسمي لاحـكم فعلي لتحـكم الضباط الجرمان فيهم ، وفي أوائل القرن الخامس سعى قائد اسمه ستليشو بوساطة جيش جنده من الجرمان وحتى من الهون ، سعى عبثا نحو منع الوندال من تخريب مقاطعة غاليا ، ومنع القـوط الغـربيين المستقرين قرب البحر الادرياتيكي من دخول ايطاليا ، ولقدقتل أثناء مسعاه هذا ، وقام الوندال بعبور ايطاليا الى غاليا واثناء عبـورهم نهبوا روما ، وتابعوا سيرهم من فرنسا نحو اسبانيا حيث جـرفوا الوندال أمامهم ، ولقد احتل القوط الغـربيون اسـبانيا مـع جنوب فرنسا وتمكن الوندال من العبور الى شمال افريقية حيث تملكوهـا من اسيادها مـن الضـباط الجـرمان.ومـع حلول عام ٤٩٠ كانت ايطاليا في حوزة القوط الشرقيين وكانت اسبانيا مع جنوب فـرنسا بيد القوط الغربيين وكان الوندال يتملكون سواحل شمال افريقية .

وكانت اعداد هذه الشعوب البـربرية قليلة نسـبيا لذلك نجـدهم لايتركون اثرا دائما مستمرا في الأماكن التي حازوها ، وسـبق أن اشرنا الى ان كل من القوط الشرقيين والغربيين كانوا على معـرفة بالحضارة الرومانية ومتـأثرين بهـا وذلك قبـل دخـــولهم أراضي

الامبراطورية الرومانية الغربية ، وعلى الرغم من أنهم نادرا ما انقادوا لأوامر السلطات الرومانية وكثيرا ما حاربوا جيوش روما فانهم ظلوا يعتبرون انفسهم حلفاء الرومان ، وقد مارس القوط كلا الدورين في مناسبات كثيرة ، من ذلك ـ كما راينا في سنة ٣٧٨ م هزموا جيشا رومانيا قاده الامبراطور فالنز وفتكوا بالامبراطور نفسه ، ونقيض هذا انه في سنة ٤٥١ م قام القوط الغربيون بالاندماج في الجيش الروماني لشمال غاليا مع مجموعات من الفرنجة ، وقد عملت هذه القوات ضد أتيلا ملك الهون(ـ٤٥٣ م) الذي كان يغزو غاليا آنئذ .

وقد عولت الجيوش القوطية في عيشها في ممالكها داخل الأراضي الرومانية على نتاج الأراضي الزراعية ، وكان على كل مالك ارض محلي ان يؤدي قسما من منتوجاته لأحد المحاربين القوط مع اسرته ، ولقد ادعى ملوك القوط انهم وكلاء للأمبراطور الروماني وكانوا يظهرون عظيم البهجة والسرور عندما كانت روما ترسل لأحدهم لقبا ما يدل على التوكيل والمشاركة في الحكم ونبل المنزلة والتقدير ، ومعلوم ان القوط حين دخلوا اراضي الامبراطورية الرومانية كانوا يدينون بالمسيحية حسب العقيدة الاريوسية وهي مخالفة لعقيدة رعاياهم ، كما كانت لهم أعرافهم وقوانينهم الخاصة بهم ، ولهذا فقد حكم القوط بعد هجرتهم تبعا لقوانينهم الخاصة وتركت المقاطعات الرومانية تدار وفقا لقواعدها السالفة ، ولقد عد الرهبان الكاثوليك القوط هراطقة ، وعلى العموم كان ملوك القوط في غاية التسامح عينوا عددا بسيطا من رجال الدين الاريوسيين ، وتركوا البقية العظمى في يد الرهبان الكاثوليك ، ومع ذلك لم تكن الكنيسة الرومانية لتستكين في ظل حكم هرطقي وهذا مما عقد الأمور .

لقد دمرت هجرة القوط والوندال امبراطورية روما الغربية بشكل فعلي ، كل هذا رغم ان الامبراطور الروماني الشرقي جستنيان الذي حكم في القسطنطينية من ٥٢٧ الى ٥٦٥ كان قد نجح في

القضاء على كل من الوندال والقوط الشرقيين واسترد قسما من جنوب اسبانيا من القوط الغربيين ومعلوم ان خلفاء جستنيان اعوزتهم المصادر والظروف فعجزوا عن الاحتفاظ بمكتسبات جستنيان ، وفي سنة ٥٦٨ م حدثت هجرة جرمانية جديدة هي هجرة اللومبارديين الذين استولوا على ايطاليا ، ومع نهاية القرن السادس نجد امبراطورية القسطنطينية تحكم صقلية مع أجزاء من ايطاليا بينها روما ورافينا والبندقية فقط،والبقية من أراضي ايطاليا كانت في أيدي اللومبارديين .

انه لمن الأمور الشديدة الصعوبة أن نستطيع تقدير آثار هجرة الجرمان على البلدان الغربية الواقعة في حوض البحر المتوسط وخاصةمن النواحي الاقتصادية ، وهذه مسألة ما تزال تثير جدلا كبيرا بين الباحثين ، فبعض من هؤلاء يرى أن هذه المقاطعات كانت قبل ان يتدفق عليها الجرمان بأعداد كبيرة في أحوال تقهقر وسير في دروب الفقر والانحطاط وكل ما صنعه الجرمان هو انهم عجلوا بالوصول الى الانحطاط والفقر والعزلة الاقتصادية ، لكن من المؤكد أن هذا التعجيل كان حاسما فالتخريب الذي سببته أعمال الحرب بين الفئات الجرمانية المتناحرة ثم بين الجرمان والجيوش الرومانية لابد انه كان هائلا ، وكانت آثاره على الاحوال الاقتصادية والاجتماعية والحضارية أهول ، ففي احوال السلم وعندما كانت الامبراطورية الرومانية في أوج عظمتها وجدت من المتعذر القضاء على القرصنة وقطع الطرق ، وكان لهذا الانعكاسات الكبيرة على المواصلات التجارية والثقافية ، ومع حالة الفوضى وانعدام الأمن الذي كان من حصاد هجرة الجرمان توقفت التجارة لأنه لم يعد هناك من يتجرأ على نقل البضائع ثم ان الثروات والأموال تبددت في الغرب فلم يعد هناك من يمكنه الشراء .

ومع هذا لم يتدمر كل شي دفعه واحدة ففي القرن الخامس كان مايزال في المقاطعات التي احتلها البرابرة بعض النبلاء الرومان يعيشون في قصور ظلت مراكز للثقافة الكلاسيكية ، لكن هؤلاء

الذبلاء كانت اعدادهم قليلة وكان عليهم ان يعاشروا رجال القوط المتخلفين الذين كانوا لايقيمون وزنا لما لديهم من ثقافة وحضارة ، هذا وان الدمار الذي نجم عن تحركات الجيوش الجرمانية كان ابلغ من كل تقدير ، فروما نفسها عاصمة الامبراطورية القديمة ومركز العالم الروماني نهبت مرتان من قبل الجموع البربرية ، مرة بشكل بسيط من قبل القوط الغربيين أولا ثم بشكل رهيب من قبل الوندال سنة ٤٥٥ ونستدل من كتابات شهود عيان ومعاصرين ان هاتين الحادثتين قد هزتا العالم الروماني بشكل عنيف جدا ، وعلى هذا نجد ان الامبراطورية في الغرب في نهاية القرن الخامس قد تمزقت سياسيا واقتصاديا وثقافيا وانحطت مكانتها الى الحضيض .

لقد نجت مؤسسة رومانية غربية واحدة من الدمار وعاشت لتقوم بدور عظيم جدا في صنع احداث تاريخ اوربة في العصور الوسطى ، الا وهي الكنيسة الكاثوليكية ، ذلك ان قادة الجيوش الجرمانية برغم عدم كاثوليكيتهم احترموا الكنيسة وصانوا ممتلكاتها ورجالها ، مدركين ان ذلك انفع لهم وسهل عليهم التحالف مع الكنيسة واستغلالها خاصة بعد اندثار روما ومؤسساتها على أيديهم ، وساعد تطور الأحوال اسقف روما على التقدم بين اساقفة الغرب والانفراد بالعاصمة الامبراطورية التي خلت من عرش امبراطورها ، فعندما احتل اللومبارد وسط ايطاليا حالوا بين نائب الامبراطور البيزنطي المقيم في رافينا وبين متابعة ادارة شؤون روما ، وهكذا صار اسقف روما حاكمها المدني وحاكم ما انضاف اليها من ضواحي ، وهكذا عاشت الكنيسة وكسبت مع مرور الأيام القوة والسمعة والشهرة .

ومن الملاحظ اننا في حديثنا عن الامبراطورية الرومانية واثر الشعوب الجرمانية عليها أوقفنا حديثنا على ما جرى في مقاطعات الغرب الأوربي الواقعة في حوض البحر المتوسط وبذلك اهملنا بعض مقاطعات الامبراطورية النائية مثل حدود الراين وشمال غاليا

وبريطانيا علما بان هذه المقاطعات ساهمت بنصيب أوفر في صنع التاريخ الأوربي الوسيط ولعلنا فعلنا ذلك لأن دور هذه المقاطعات في صنع التاريخ الروماني كان هامشيا مثل مواقعها .

فعندما كان على الجيش الروماني الدفاع عن اراضي الامبراطورية الكائنة في الحوض المتوسط سحب فرقه التي كانت مرابطة في بريطانيا وغاليا للتصدي للوندال والقوط ، وهذا اتاح السبيل امام الأقوام الجرمانية التي كانت داخل الحدود الرومانية وتعمل لحساب روما للدفاع عن حدودها ضد بني جلدتها الجرمان ، فاتيح امامها السبيل للتوغل داخل الأراضي الرومانية ، فقد جاء الألمان الى الوسط الشرقي لغاليا واستقروا فيه ، واحتل البيرغنديون وادي الرون ، وتحالفت قوى غاليا المختلفة عام ٤٥١ م فتمكنت من منع الهون من احتلالها .

وفي سنة ٤٨٦ قام كلوفس الذى كان من قادة الفرنجة ، وكان عسكريا ناجحا وسياسيا بارعا ، قام بالتوسع داخل غاليا على حساب غيره وذلك بعدما تحالف مع الكنيسة الكاثوليكية وتزوج من احدى الاميرات الكاثوليكيات ، واثناء توسعه تخلى مع اتباعه عن الأريوسية وعمد كاثوليكيا ، وهكذا غدا كلوفس حامي الكاثوليكية والمدافع عنها ، ويروى انه اخذ على نفسه عهدا الا يبقي في غاليا من يعتقد الأريوسية وهكذا وبهذه العلة تمكن كلوفس الذي كان يحمل اللقب الروماني ركس من السيطرة على معظم اجزاء غاليا ، وغدت فرنسا الحصن الحصين للكاثوليكية .

وكمنت قوة الفرنجة في كون موطنهم الأصلي كان قريبا من غاليا التي هاجروا اليها ، على أن الأعداد التي دخلت منهم مهاجرة الى غاليا لم تكن كبيرة نسبيا ، ويبدو ان غالبيتهم ـ اي المهاجرين ـ استقرت في المناطق الواقعة شرقي باريس والى الشمال الشرقي منها ايضا وكانت هذه الأراضي مهجورة غير مستعملة ، فأقاموا فيها عدة قرى جديدة ولم يوجد الى الغرب من باريس مثل هذه القرى ولا أيضا في جنوبي اللوار، على انه برغم طبيعة اعداد الفرنجة

في فرنسا ، فانهم غدوا حكام غاليا السياسيين والعسكريين ، وحاز الموظفون لدى ملوك الفرنجة مع رجالات هؤلاء الملوك ممتلكات لنفسهم وامتزجوا بطبقة الارستقراطية الغالية ـ الرومانية لكن تأثيرهم على الأسس والقواعد الثقافية كان قليلا ، فقد استمر الفلاحون يحرثون حقولهم كما فعلوا في الماضي ، وتكلم هؤلاء لغة عامية خاصة انحدرت من اللاتينية ، وهذه اللغة هي التي ستكون ماسيعرف فيما بعد باللغة الفرنسية ، وحكم النبلاء الفرنجة في المدن التي استولوا عليها بجانب أساقفة الكنيسة ، لكن الفرنجة لم يدخلوا أية تعديلات على التقسيمات الادارية القديمة ، والفارق الجوهري بين دولة الفرنجة وبقية دول الشعوب الجرمانية من وندال وقوط شرقيين وغربيين هو ان الفرنجة احتفظوا بالشعوب التي قهروها ، وهكذا اقاموا مملكة جرمانية على قواعد رومانية ـ غالية .

واذا ماتركنا غاليا ومضينا نحو بريطانيا نجد انه ليس لدينا تاريخ مؤكد يحدد وقت انسحاب الجيوش الرومانية من الجزيرة البريطانية ، وفي العادة يقال بأن ذلك كان عام ٤٠٧ ، لكن مهما يكن الحال فان تاريخ هذه الجزيرة منذ هذا التاريخ وحتى القرن السابع هو في غاية الغموض ، ويبدو انه إثر انسحاب الرومان قامت مجموعات اسكوتلندية من جزيرة ايرلندا بالاستيلاء على بريطانيا واقامت مملكه حكمتها مع ايرلندا او حكمت جزءا منها مع ايرلندا ، لكن خلال ذلك الوقت لم يتوقف الجرمان عن الاغارة على السواحل البريطانية واخيرا جاءوا اليها مهاجرين للاستقرار،وعلى العموم كان سكان بريطانيا في العصر الروماني يقطنون الأماكن المرتفعة ويبتعدون عن وديان الأنهار والأراضي المستنقعية مع الغابات ، وعندما جاء المهاجرون الجرمان الى بريطانيا قدموا من مواطن عاشوا فيها في قلب الغابات لذلك وجدوا الاراضي غير المقطونة في هذه الجزيرة مثالية وموافقة لمزاجهم وعاداتهم فاستعمروها ، ولاشك ان بعض المهاجرين قطن في أماكن كانت مستعمرة وقد تم التمازج بين المهاجرين والسكان القدامى احيانا

سلميا واحيانا اخرى بعد صراعات طويلة ، ورويدا رويدا انتصر الجرمان ، وفي الربع الأول من القرن السابع كانت غالبية اجزاء انكلترا في ايديهم ، وقد جاء غزاة بريطانيا مما يعرف الآن باسم الدانمارك ومن جنوب المانيا ، وقد دعوا انفسهم بالانكليز ، والساكسون والجوت وكانوامتقاربين باللغة والعادات والتقاليد ، وليس من النافع الحديث عن كل واحد من هذه الشعوب انما تكفي الاشارة اليهم بشكل مجمل وذلك باسم انكلو ـ سكسون ، ولقد كانت سيطرة هذه الشعوب على انكلترا اوفى واكثر عمقا من هجرات بقية الشعوب الجرمانية الى المناطق المختلفة من اوربة ذلك انهم ازالوا الشعوب البريطانية بالقتل والاستعباد والتهجير ، وانكلترا الجرمانية زرعت اراضيها من قبل المهاجرين الجرمان ، وهذا امر لم يحصل في بقية الأراضي الأوربية التي هاجر اليها الجرمان وحتى انه لم يقم في اجزاء بريطانيا الأخرى عدا انكلترا ، حيث ان الجرمان كانوا فاتحين عسكريين يحكمون شعوبا مقهورة وعلى العموم لم يدمر الآنكلو ـ سكسون سكان انكلترا البريطانيين فحسب بل ازالوا كل معالم الحضارة الرومانية من بريطانيا وهذا امر لم يحصل في بقية اجزاء اوربة الرومانية التي احتلتها الشعوب الجرمانية ، وكان حال بريطانيا في القرن السابع انها غدت مقسومة بين الكلتيين والجرمان .

ان ما قمنا به حتى الآن هو البحث في الأصول الكلتية والجرمانية والرومانية التي كون تمازج تراثها تاريخ اوربة في العصور الوسطى ، لكن عمليات هذا التكون التمازجي لم تمر بسلام ووقت قصير ، بل عبر عصور اشتد فيها الصراع وتعاظمت ابعاده وصوره ، وكانت الخليطة الناتجة هي ماندعوه عادة باسم حضارة العصور الوسطى ، وعلى هذا فإن القانون الروماني اخذت مؤثراته تظهر على التفكير الأوربي منذ القرن الحادي عشر ، والمؤثرات الكلتية الحضارية اصبحت مهمة منذ القرن الثاني عشر ومؤثرة على الثقافة الجرمانية ، وعليه إن على القارىء الذي يود التعرف الى ما حدث في تاريخ العصور الوسطى ان يكون متمتعا بعظيم الصبر اثناء

دراسته لأصول هذا التاريخ ، وبديهي أنه بدون فهم هـذه الأصـول على شدة تعقيدها لا يمكن استيعاب أية قضية من قضـايا التـاريخ الوسيط .

لقد غيرت هجرة الشعوب الجرمانية الوضع الجغـرافي والزراعي والاقتصادي للعالم الأوربي ، كمـا زلزلت التـوازن العسـكري في أوربة.

وفي الوقت الذي تمكن الجرمان فيه من احتلال المقاطعات الغربية للامبراطورية الرومانية ، فانهم لم يتعدوا طور الاحتلال الى التغيير البشري والعرقي ، فلقد كانت اعدادهم قليلة ، لذلك كان حالهم حال جيش محتل أكثر من حال شعب مهاجر يبغي أن يحل محـل شـعب آخر ، ولقد استطاع الجرمان الاحتفاظ بالمقاطعات التي اسـتولوا عليها ما دام ليس هناك قوة عسكرية أخرى تستطيع طـردهم ، لكن في القرن السادس تمكن الأمبراطور البيزنطي جستنيان من القضاء على القـوط الشرقيين والوندال في كل مـن ايطـاليا وشـمال افريقية ، وبعد قرن ونيف قضى المسلمون على القـوط الغـربيين في اسبانيا ، وعلى هذا صحيح أن الجرمان حـطموا الكيان السـياسي لروما الغربية في مقـاطعاتها الغـربية الواقعـة على البحـر المتوسط ، لكن هؤلاء الجرمان عجزوا عن تقديم نظام بـديل يحـل محل النظام الروماني ، ولهذا نجد أن مراكز القوة السياسية تنتقل من المقاطعات الرومانية الى الأراضي الأوربية التـي كانت الموطـن الأصلي للشعوب الجرمانية أو الى مـا جـاورها مـن مقـاطعات استعمرها الجرمان بشكل كامـل ، ومـع سـقوط مملكة القـوط الشرقيين في ايطاليا أصبح الفـرنجة القـوة العسـكرية المتحـكمة والفعالة في غرب أوربة ، وكما ذكرنا من قبل فإن مراكز قوة الفرنجة كانت في الشمال الشرقي لغاليا وفي وادي الرين ، ومع أن حضـارة العصور الوسطى نشأت من اندماج العناصر الحضارية الجرمانية بالعناصر الرومـانية وتـطورها ، الا أن هـذه الحضـارة لم

تنشأ في حوض البحر المتوسط بل في أراضي الشعوب الجرمانية الأولى قبل الهجرة.

ولقد كا ن لنقل مركز السلطة والسياسة والحضارة من مقاطعات البحر المتوسط الى شمال أوربة تأثير على جغرافية أوربة السياسية والاقتصادية ، وتأثير المحيط الجغرافي الجديد على الحضارة الوسيطة يأتي من انه معلوم أن مناخ شواطى البحر الأبيض المتوسط معتدل جاف ، والتربة في الأراضي المتوسطية خفيفة والغابات قليلة والأنهار ليست كثيرة ، فالري الزراعي قليل كما ان الأراضي الصالحة للزراعة غير كافية وغير عظيمة الخصب واراضي شمال أوربة كانت باردة في الشتاء لطيفة في الصيف كثيرة الأمطار ، وكانت مغطاة بالأحراش والغابات وعندما قام المستعمرون الجرمان بتنظيف بعض البقاع من الأشجار وجدوها تنتج كميات كبيرة من الحبوب ، وكانت الأرض ومنتجاتها قاعدة الاقتصاد في العصور الوسطى ، وعلى هذه القاعدة اعتمدت دول اوربة الغربية الوسيطة لكن لماذا اعتمدت أوربة الغربية فقط على موارد أرضها الزراعية ، اكان ذلك عن اختيار أم إجبار ، وأخيرا وتبعا لهذا اكان الحال الاقتصادي هو الذي حدد بداية العصور الوسطى أم سقوط روما السياسي على يد الفاتحين الجرمان ؟

ان افضل من حاول معالجة هذه المسألة هو المؤرخ البلجيكي ـ هنري بيرين ـ وجاءت خلاصة افكاره في كتاب نشر بعد وفاته دعاه باسم «محمد وشارلمان» وقد اثار ما قدمه بيرين في هذا الكتاب زوبعة كبيرة بين العاملين في تاريخ أوربة في العصور الوسطى ومازال مع انه مضى على نشره سنين عديدة ، وكان ماقدمه بيرين من رأي هو أن الفصل بين العصور القديمة الكلاسيكية والعصور الوسيطة قد قام بعد سنة ٨٠٠ م ، أيام حكم شارلمان وليس أيام الهجرة الجرمانية في القرن الخامس ثم السادس .

ويقدم بيرين عرضا مؤيدا لأفكاره ملخصه أن الأراضي التي تشكلت منها الامبراطورية الرومانية في عصورها المتأخرة أي من

بعد القرن الرابع ، كانت تلك المحيطة بالبحر المتوسط ، حيث أن هذا البحر كان بحيرة رومانية وصلت بين مقاطعات الامبراطورية ولم تفصل بينها ، فقد كانت هذه البحيرة طريقا سافرت عبره الديانات والفلسفة وأنواع البضائع التجارية ، كل هذا مع عقائد مصر وثقافات الشرق وعبادة مثرا والمسيحية ، وفيما بعد نظام الرهبانيات وحياة الديارات ، وعلى طول شواطئ البحر المتوسط امتدت طرق القوافل التي انتقلت عليها كنوز الشرق وبضائعه الرائعة من عاج وتوابل وحرير وورق البردي والخمور والزيوت ، وفي المقابل أرسل الغرب الى الشرق منتجاته وخاصة العبيد ، ولقد كان هناك وحدة نقدية للامبراطورية تمثلت بالسوليدوس الذهبي ، ولقد اشرف على ادارة الأعمال التجارية وتنظيمها داخل الامبراطورية التجار اليهود والتجار السوريون .

وهنا يطرح سؤال حول : ما هي مؤثرات هجرة الشعوب الجرمانية على الامبراطورية الرومانية وذلك عندما قامت في القرنين الرابع والخامس ؟ لقد قهرت المقاطعات الغربية بما فيها ايطاليا من قبل الشعوب الجرمانية الغازية وزالت السيادة الرومانية السياسية من الغرب ، ولقد كان هذا في حد ذاته فاجعة عظمى ، بيد انه برغم ذلك لم يجلب نهاية العصور الكلاسيكية كما ظن بعضهم من قبل .

وحيث أن القبائل الجرمانية الغازية شكلت أقلية صغيرة في البلاد المفتوحة ، ومع اننا لانملك ارقاما محددة،لكن تقديرات المؤرخين تقول بأن عدد القوط الشرقيين في ايطاليا لم يتجاوز المئة الف وكذا عدد القوط الغربيين في اسبانيا وجنوب فرنسا ، وعدد البيرغنديين في جنوب شرقي فرنسة حوالي خمسة وعشرين الفا ، ولم يبلغ عدد الوندال الذين عبروا الى الشمال الافريقي أكثر من ثمانين الفا ، وعلى هذا لم يتجاوز عدد الشعوب الغازية بالنسبة للشعوب المقهورة نسبة أعلى من واحد الى مئة ، وليس هناك ما يثبت أن هؤلاء الجرمان تلقوا امدادات جديدة ،.بل على العكس نقصت أعدادهم

بفعل البيئة الجديدة وبفعل الحرب ، واخيرا أطيح بهم عسكريا وتم امتصاصهم.

ومن الواضح أن جرمنة البلاد المفتتحة كان محدودا جدا ، فقط ظهر واضحا في بقاع وقعت مباشرة على الحدود الشمالية للامبراطورية ، حيث تلاصقت مع المواطن الأصلية للشعوب الجرمانية ، لكن فيما عدا ذلك فاننا نجد التأثير اللغوي الجرماني على الفرنسية لايتجاوز ثلاثمائة كلمة وكذا الحال بالنسبة لجميع اللغات الأوربية الأخرى ، وكما حدث في ايطاليا ومقاطعات الغرب الروماني إن الفاتحين الجرمان تم امتصاصهم من قبل السكان المحليين حيث مانزال نجد بقايا عناصر شقراء في كل من ايطاليا وشمال افريقية يفترض بعضهم انها من بقايا المهاجرين الجرمان .

وعلى هذا فان الاحتلال الجرماني وان قضى سياسيا على الامبراطورية الرومانية الغربية لكنه لم يقض على الحضارة والنظم وتقاليد المعيشة والادارة الرومانية ، لقد استمر وجود روما الغربية ، بدون استقلال سياسي ، لكن هذا البقاء استمر ايضا يسير في طريق التقهقر والانحدار وعندما زال الحكام الرومان من الوجود وحل محلهم حكام من أصل جرماني ، فإننانجد أن هؤلاء الجرمان تابعوا السير على النهج الروماني نفسه ، ولم يقوموا بتدمير المؤسسات الكلاسيكية الثقافية بل حافظوا عليها ، ولم لا فالجرمان كانوا متأثرين الى أبعد الحدود بالحضارة الرومانية وكانوا يعرفون ثقافة روما قبل قهرها سياسيا ، وظلوا هكذا بعد نصرهم عليها ، وفي حالات كثيرة تنازلوا عن عاداتهم وتبنوا الطريقة الرومانية لسموها وتقدمها ، ولذلك ما أن زالت قوى الجرمان العسكرية حتى ذابوا حضاريا وتم امتصاصهم من قبل الشعوب المقهورة ، وخلال هذا كله تابعت المؤسسات الثقافية الكلاسيكية سيرها نحو النهاية ، ولم يكتب البقاء الا لمؤسسة رومانية ثقافية واحدة كانت هي الكنيسة وصحيح أن الكنيسة احتفظت بوجودها لكن كأداة تخضع لادارة رجال الدنيوية ، وهذه

الادارة تابعت اختيار موظفيها من خارج النظام الكذسي ورجال الكهنوت ، وحكمت المقاطعات المقهورة حكما استبداديا كما كان الحال أيام الامبراطورية ، وظلت الادارة في أيدي طائفة الموظفين من السكان المحليين المثقفين ، واستمرت قواعد الجباية تعتمد في جمع الضرائب من النقد العين المضروب من الذهب ، وإسس الجرمان ـ كما سبق الذكر ـ ملكيات في الأراضي التي استولوا عليها ، لكن مامن ملكية ضمت شعبا بأسره ، فكانت دولة وطنية لأمة من الأمم ، بل استمر نظام التوزيع الاداري الروماني قائما دونما تعديل أو تغيير ، والتعديل الذي تم بواسطته إعادة توزيع هذه المقاطعات حدث في القرن السادس من بعد ماتمكنت جيوش الامبراطور جستنيان امبراطور روما الشرقية من اعادة السيطرة على معظم مقاطعات روما الغربية حيث عاد البحر المتوسط زمن جستنيان مرة ثانية بحيرة رومانية وهنا حدثت ردات فعل جرمانية ، فقام اللومبارديون بعبور جبال الألب واستقروا في شمال ايطاليا ، لكن هذه الحادثة لم تعطل شيئا من الواقع المذكور انفا وهم بدورهم تم امتصاصهم فيما بعد ، وهكذا ظلت الحياة والأمور هي ذاتها ، وكما كان فيما مضى استمر السوريون واليهود في ممارسة النشاط التجاري فجلبوا البضائع الشرقية الممتازة وظلت مقاطعات البحر المتوسط مترابطة حيث تابعت بلاد ايطاليا واسبانيا وفرنسا على سبيل المثال استيراد الجمال من شمال افريقية لتستخدم في عمليات النقل ، ويمكن أن نجد في مدينة نربونة وهي مدينة فرنسية الآن ـ نموذجا لما كان عليه الحال في القرن السادس ، ففيها وجد القوط والرومان واليهود والسوريون والاغريق ، وعاشوا جنبا الى جنب وكل نشط في ميدانه ، وسلفت الاشارة الى أن الحكام الجرمان لغربي اوربة اعتمدوا في اداراتهم على رجال ذوي ثقافة رومانية ، وليس فقط ذوي ثقافة بل عادات وتقاليد رومانية ، واستمر استعمال اللاتينية والاعتماد على ادابها برغم ما الم بها من انحطاط ، وبكلمة موجزة لقد تغير وجه اوربة

الغربية إثر احتلالها من قبل الشعوب الجرمانية لكن ليس بعمق انما بشكل بسيط فقط .

ثم جاءت الطامة الكبرى الحقيقية ووقعت الواقعة في القرن السابع فقادت الى ابلغ النتائج في التاريخ الأوربي ، وكانت هذه الطامة هي ظهور العرب كقوة عظمى بسبب قيام الاسلام ، وحدوث الفتوحات العربية الكبرى ، فقد توفي النبي محمد صلى الله عليه وسلم في عام ٦٣٢ م وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم بفترة وجيزة جدا حدثت الفتوحات العربية الكبرى بعنف وسرعة كبرى مذهلة ، وعندما قام الاسلام كانت الامبراطورية البيزنطية تمتلك البلدان المحيطة بشرقي البحر المتوسط ، وكان يتربع على عرشها الامبراطور هرقل الذي هزم الامبراطورية الساسانية ، وأوصل دولته الى ذروة القوة والمجد ، وخيل اليه ان مامن قوة في الدنيا باتت تهدد دولته ، ولم يخطر ببال هرقل ان يأتيه الخطر من بداة شبه جزيرة العرب ، ولكن خابت حساباته وغدت آماله سراب .

ففي سنة ٦٣٤ عبرت جيوش العرب المسلمين نهر الاردن ، وهزمت هذه الجيوش قوات بيزنطية في أكثر من معركة وفتحت دمشق وتابعت سيرها شمالا فطردت هرقل نفسه الى داخل آسية الصغرى ، وغدت سورية كلها للعرب الذين زحفت جيوشهم نحو مصر فافتتحوها ومن مصر ستتوجه نحوشمال أفريقية ، ومن المغرب ستعبر مضيق جبل طارق ـ كما يعرف الآن ـ الى اسبانيا ، وهكذا وبسرعة غير متوقعة فقدت بيزنطة البحر المتوسط مع مقاطعاتها الكائنة على هذا البحر ، وفجأة تحول البحر المتوسط من بحيرة رومانية الى بحيرة عربية ، وتوغل العرب داخل أوربة ، ولم يوقف توغلهم إلا النيران اليونانية عند أسوار القسطنطينية وشارل مارتل في بواتيه(ودولة الخزر في جبهة البحر الأسود).

وهناك فوارق لا يمكن عدها بين العرب الفاتحين والجرمان الذين سبقوهم بالصراع مع روما ، فالفتوحات العربية لم تكن مجرد

هجرة بداة بل كانت عملا عقائديا حضاريا ، لذلك لم تمتصهم شعوب البلدان المفتوحة بل هم قاموا بتعريب هذه الشعوب وتحويلها إلى الاسلام ، والاسلام بعقيدته في التوحيد خالف غيره من الديانات وخاصة النصرانية ، وصحيح أن الشعوب الجرمانية حين قهرت بعض مقاطعات روما كانت أريوسية وكان سكان البلدان المفتوحة كاثوليك لكن كل من الأريوسية والكاثوليكية يجمعهما المسيح ، وكانت شعوب الجرمان أدنى ثقافة وحضارة من شعوب روما ، ولم يكن العرب كذلك، هذا ولايمكن مقارنة الفتح العربي بأعمال التوسع الجرمانية فالعرب باسلامهم كانوا ارحم شعب عرفه التاريخ .

لقد كانت نتائج الفتوحات العربية على أوربة الغربية عظيمة جدا ، ومن المعلوم أن الامبراطورية الفرنجية هي التي أوقفت الزحف العربي ضد أوربة الغربية ، ذلك أن هذه الامبراطورية كانت تعيش عصر قوتها الذهبي ، لكن لماذا تحول مركز القوة الفعالة في اوربة الغربية من المقاطعات المتوسطية التي سلف وكانت غنية مزدهرة فيها تجارة رائجة الى الاراضي الفرنجية في الشمال التي كانت أفقر من الأراضي المتوسطية، إنما هي زراعية تنتج الحبوب ؟ يبدو أن السبب الرئيسي في ذلك هو انهيار التجارة الجنوبية ، فقد شطرت الفتوحات العربية البحر المتوسط إلى قسمين ، النصف الشرقي حيث الامبراطورية البيزنطية ظلت حية بفضل متانة أسوار القسطنطينية وكثرة مواردها واستراتيجية موقعها ، ثم بفضل وجود النار اليونانية واحتفاظ هذه الامبراطورية بقوة بحرية معتبرة ، أما القسم الغربي فقد أستولى عليه العرب ، وحدث في مقاطعات أوربة الغربية انقلاب هائل ، ففي فرنسا أهم هذه المقاطعات أختفت جميع البضائع الشرقية التي كان التجار السوريين يجلبونها ، لقد انعدم وجود ورق البردى والتوابل والزيوت والحرير والذهب أيضا ، ودمرت المؤسسات التجارية المحلية بعد أن انتابها الضعف والافلاس ، وفي جنوب فرنسا ظهر مكان التجار المحليين تجار مشارقة جدد عملوا كوسطاء بين العالم

العربي والغربي ، ولقد كانت أهم النتائج المباشرة لتوقف التجارة عجز سريع وكبير في دخل السلطة الملكية ، مما جعل الملك يعتمد أكثر فأكثر على النبلاء من ملاك الأراضي ، ولقد كان هذا السبب الرئيسي في اضمحلال الحياة السياسية والاجتماعية في زمن الميروفنجين في القرن السابع ـ وهذا أمر سنذكره بالتفصيل في المستقبل ـ وقد تأثر جنوب فرنسا أكثر من الشمال فانحطت مدن الجنوب في حين استمرت مدن الشمال في اعتمادها على الحياة الزراعية وفي الشمال وجد الفرنجة ، ومن مقاطعات الشمال الفرنجية جاء أجداد الأسرة الكارلونجية ـ أسرة بيبن وشرلمان ، لقد كانوا من نتاج الأرض البلجيكية من قرب لييج حيث حتى اليوم ماتزال تعيش أسرة تحمل أسم بيبن وتنسب اليه .

ويمكن أن نلاحظ أن الفوارق كبيرة للغاية بين الأحوال في فرنسا أيام الدولة الكارلونجية في القرن الثامن أو التاسع وبين الأحوال أيام الدولة الميروفنجية في القرنين السادس والسابع ، فالاقتصاد الآن أصبح قائما على الزراعة بدلا من التجارة ، وقد حلت الفضة محل الذهب في النقد ومعيار التعامل ، وقامت الكنيسة بطرد الموظفين المدنيين من الادارات ، وغدت اللغة اللاتينية لغة حديث وكتابة فقط داخل الكنيسة ، وحلت بين الناس عاميات لاتينية أخذت مكان اللهجات الاقليمية ، وتطورت أدوات الكتابة وانتظمت لكن ما يدعى عادة باسم النهضة الكارلونجية التي قامت على اللغتين الاغريقية واللاتينية مع آدابهما كانت محدودة وعابرة ومرتبطة بعدد من العلماء في الطبقات العلية ولم تتوغل بين صفوف الناس العاديين .

إن هذه الآراء التى قدمها هذا المؤرخ البلجيكي الأصل في كتابه محمد وشارلمان قد أثارت كما ذكرنا عاصفة من الجدل ، حيث حاول بعضهم أن يرد عليه فيدحض بعض الآراء التي قدمها ويبطل الكثير من الشواهد التي اعتمد عليها ، من أن التجارة لم تنقطع ولم تتوقف بل ضعفت ، وان استمرار الاستيراد سبب انعدام الذهب في

الغرب بشكل تدريجي ، لكن مهما تكن حرارة الدفوع التي رفعت ضد آراء بيرين تبقى نظرياته أقوى وأمتن فبالنسبة له لولا محمد لما ظهر شارلمان ، يعني أننا نستطيع فهم تاريخ تطور الامبراطورية الكارلونجية فقط عندما نتحدث عن التوسع العربي في غربي أوربة ، فالضغط العربي هو الذى ولد حياة زراعية وقوة عسكرية في فرنسا وهوالذى سبب وجودها في الشمال وأخذها هذا الاتجاه .

إن هذا الذى طرح حتى الآن يدعونا أولا وقبل كل شيء أن نتوقف ريثما نتعرف الى تاريخ كل من الدولة الميروفنجية ثم الامبراطورية الكارلونيجية في غربي أوربة ، وإلى تاريخ الامبراطورية البيزنطية في شرقي أوربة وآسية الصغرى .

الامبـــراطورية البيزنطية والحضـــارة الارثـــوذوكسية الشرقية

لقد وضعت هجرة الشعوب الجرمانية واعمال توسعها في القـــرن الخامس مقاطعات الامبراطورية الغربية تحت سيادتها ، لكن غالبية الأجزاء الشرقية من الامبراطورية الرومانية نجـــت مـــن الاحتـــلال الجرماني برغم انها عانت من غارات هذه الشـــعوب المدمـــرة ، ولم يتح لهذه الشعوب الاستقرار في مقاطعات أوربـــة الشرقية ، ثـــم إن بقية مقاطعات الامبراطورية في آسية لم تصبها أية مضار مـــن قبـــل الشعوب الجرمانية.

ولقد سبق لنا أثناء عرضنا لتاريخ الامبراطورية الرومانية المتأخر وعلاقة هذا التاريخ بظهور المسيحية وانتصارها مع هجرة الشعوب الجرمانية أن تحـــدثنا عن انشـــطار الامبـــراطورية الرومـــانية إلى شطرين واحد في الغرب وآخر في الشرق ، كمـــا تحـــدثنا عن إقـــامة الامبراطور قسطنطين الكبير لمدينة القسطنطينية في موقع مســـتعمرة اغريقية قديمة عرفت بـــاسم بيزنطـــة ، وكان هـــذا الموقـــع في غاية الاهمية ، فهو وإن وقع في البـــر الأوربـــي إلا انه كان وثيق الصـــلة باسية ، فالقسطنطينية مدينة أوربية آسيوية برية بحـــرية ، يســـهل الوصول منها واليها برا وبحرا إلى أوربة واسية وروسيا ، ويمـــكن الدفاع عنها ضد الغزاة من آسية من الجهـــة الأوربية ومـــن الجهـــة الآسيوية ضد الغزاة من أوربة ويمكن أن تقوم بـــدور صـــلة وصـــل تجاري وحضـــاري وعســـكري بين القـــارتين الاســـيوية والاوربية ، وكانت محـــاطة بشـــعوب متبـــاينة ، يصـــعب اتحادها ، ويسهل تكوين جيوش منها لخدمة اغراض الدولة والدفاع عنها.

ولقد اتخذ قسطنطين من مدينته الجديدة مركزا للجزء الشرقي من الامبراطورية الرومانية ، واخذت روما الشرقية في النمو والازدهار

وذلك في الوقت الذي كانت فيه روما الغربية القديمة تسير في مناحي الضعف والاضمحلال السياسي والحضاري .

ومنذ أيام قسطنطين وربما قبل ذلك ظهرت بوادر شطر الامبراطورية الرومانية الى شطرين ، لكن قيام ذلك رسميا تأخر بعض الوقت الى سنة ٣٩٥ م أيام الامبراطور ثيودسيوس العظيم الذي قسم الامبراطورية بين ولديه ، وجعل هناك امبراطورية غربية لاتينية اللغة كاثوليكية المذهب ، واخرى شرقية اغريقية الحضارة ارثوذوكسية المذهب .

ولقد خلف الامبراطور ثيودسيوس في حكم روما الشرقية ابنه اردكايوس (٣٩٥ ـ ٤٠٨ م) ثم ثيودسيوس الثاني (٤٠٨ ـ ٤٥٠) ، واهم ما حدث في هذه الفترة أن الامبراطور الأخير جمع القانون الروماني وقام بتبويبه ، وكان لصدور هذه المجموعة القانونية التي حملت اسمه تأثيرا كبيرا خاصة على التطور القانوني الاداري لدى دول الشعوب الجرمانية في اوربة الغربية خاصة في ايطاليا واسبانيا .

وبعد وفاة ثيودسيوس الثاني شهدت الامبراطورية الشرقية بعض التقدم ذلك أن الأباطرة الذين تربعوا على العرش كانوا على درجة لا بأس بها من الكفاءة والمقدرة ، واشهر الذين جاءوا بعده الامبراطور زينون (٤٧٤ ـ ٤٩١) فقد خلص هذا الامبراطور دولته من خطر القوط الشرقيين ، وعندما كان زينون يحكم في القسطنطينية تم خلع آخر اباطرة روما الغربية وكان اسمه روملوس اغسطس (٥٧٥ ـ ٥٧٦) ولئن تمكن الامبراطور زينون ومن جاء بعده مباشرة من حماية اوربة الشرقية من مخاطر الهون والشعوب الجرمانية ، فإنهم لم يستطيعوا القيام بأي عمل لاستعادة الغرب او انقاذه وذلك حتى جاء جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥).

لقد انتقلت السلطة الى جستنيان عام ٥١٨ م بعد ما تم تبنيه من قبل خاله الامبراطور جستين الأول وتعيينه نائبا للامبراطور وشريكا ، وحكم هذا الامبراطور صاحب الطاقات غير الاعتيادية

الامبراطورية لمدة سبع واربعين سنة فتحقق له ما لم يتحقق لسواه فكان اخر اباطرة روما واول اباطرة بيزنطة .

وكان جستنيان صاحب طاقات كبيرة مع حظ كبير ، فلحسن حظه وجد في خدمته عدد من الجنرالات الكبار كان على راسهم بلزاريوس وناريس ، وكان جيش الأمبراطورية قوامه من المرتزقة البرابرة ، إنما كان جيد التسليح ثقيلة وحسن التدريب ، وقد استطاع جستنيان بجيشه على راسه جنراليه أن يقهر أعداء الأمبراطورية ويحقق لها مكاسب كبيرة .

وكان اعداء الامبراطورية كثر ، على راسهم في الشرق الامبراطورية الساسانية ومع بداية حكم جستنيان كان على راس هذه الامبراطورية قباذ ، وفي ايامه كانت الامبراطورية الساسانية تعاني من عديد من المشاكل الداخلية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية ، ففي عهده قامت حركة مزدك وردات الفعل المعادية لها التي تمخضت عن عزل قباذ واستلام ابنه كسرى انوشروان للعرش (٥٣١ ـ ٥٧٩) حيث اخذ في اعادة تنظيم الامبراطورية داخليا ، لذلك قبل مسالمة الامبراطورية الرومانية.

وكان جستنيان قد استغل اضطراب احوال فارس الداخلية فشن حربا قصيرة ضد بني ساسان من سنة (٥٢٧ حتى ٥٣٢ م) ، وانتهت هذه الحرب بهدنة اغتنمها جستنيان فحول جيوشه نحو الغرب ، وخلال حملات استغرقت عشر سنوات تمكنت قوات بيزنطة من تحطيم دولة الوندال في شمال افريقية ، فأعادت هذه المقاطعة الغنية إلى حظيرة الامبراطورية ، وقد احتاج جستنيان إلى ضعفي هذه المدة لاسترجاع إيطاليا من القوط الشرقيين ، ومع إيطاليا كسبت جيوش الأمبراطورية جنوب إسبانيا من القوط الغربيين وعلى الرغم من أن كل من بريطانيا وغاليا ومعظم إسبانا ظلت في أيدي البرابرة الجرمان إلا أن جستنيان استرجع من هذه الشعوب قلب الامبراطورية الرومانية في كل من الشرق والغرب ، ولكن هذه الحملات جعلت الخزانة البيزنطية تتحمل أكثر من طاقتها ، ويجادل

بعضهم مسائل تثار حول أعمال جستنيان الحربية ومغامراته في الغرب من انها كانت غير مجدية ، ذلك أنه كان عليه أن يركز نشاطه الحربي ضد الأمبراطورية الفارسية ، فالذي خلفه على عرش الأمبراطورية عجزوا عن الاحتفاظ بالأجزاء الغربية التي استعادها جستنيان ، ولاقوا مصاعب كبيرة جدا في مواجهة الفرس ، فبعد وفاة جستنيان بأعوام ثلاثة دخلت قبائل اللومبارد إلى إيطاليا ثم تمكن القوط الغربيون من استرداد جنوب إسبانيا ، ومع ذلك بقيت صقلية مع جنوب إيطاليا وشمال افريقية في جملة ممتلكات الامبراطورية في الغرب .

الامبراطورية البيزنطية وخصومها.

لقد دعي جستنيان آخر أباطرة روما ، وهو بالحق جدير بهذا اللقب ، ذلك أنه على الرغم من احتفاظ من خلفه على عرش الأمبراطورية الشرقية بهذا اللقب إلا أنهم لم يكن لهم سيادة على القسم اللاتيني الغربي من الامبراطورية ، كما أن اهتمامهم السياسي بهذا القسم كان ضعيفا ، فهم على هذا كانوا حكاما للقسم الهلنستي الشرقي من الامبراطورية ، ولهذا يعرفون عادة باسم الأباطرة البيزنطيين وتعرف دولتهم باسم الامبراطورية البيزنطية ، وفي الحقيقة إننا عندما دعونا جستنيان آخر أباطرة روما ، جاء ذلك بسبب أن البلاط في عصره كان يستخدم اللغة اللاتينية ، إنما أخذ في هذا العصر بالاقلال من استخدام هذه اللغة وزيادة الاعتماد على الاغريقية ، ومن هنا كان جستنيان أول أباطرة بيزنطة ، وليس هذا فقط إنما نجد ذلك يظهر بالمباني التي شيدت في هذا العصر وعلى رأسها كنيسة اياصوفيا التي ما تزال قائمة حتى يومنا هذا ، فبناء هذه الكنيسة يختلف في نمط هندسته عن النمط الروماني ، فهو شرقي سقفه جاء على شكل قباب وليس مسطحا مثل المعابد الرومانية ، ونمط السقوف المقببة هو نمط سوري الأصل ، وبسبب تخلي جستنيان عن النمط الروماني في البناء فهو وإن كان آخر أباطرة روما فإنه موجد فن العمارة البيزنطي .

ولقد عاشت الأمبـراطورية البيزنطية ٨٨٨ سـنة بعـد وفـاة جستنيان ومن الممكن تقسيم هذه الفتـرة المديدة إلى أقسـام ثـلاثة:
الأول من سنة ٥٦٥ وحتى ٧١٦ ففـي هـذا القسـم كافحـت الأمبراطورية من أجل البقاء ضد العديد من القوى المعـادية ، وأثناء ذلك استطاعت إقامة نظام اقتصادي متين وتطويره مع نظام سياسي للحكم ونظام عسكري ، وخطت خـطوات حضـارية متميزة عن بقية أجزاء اوربة ، ثم جاء القسم الثاني مـن ٧١٦ إلى ١٠٥٧ م حيث عاشت لمدة قرون ثلاثة زاهية حيث كانت اغنى واقوى دولة في اوربة واكثرها حضارة وثقافة ، ففي هذا القرن عاشت أوربة الغـربية في عصورها المظلمة ، حيث سكنت مـن قبـل شـعوب مختلفـة في كل الميادين الحضارية في حين عاشت وتطورت في بيزنطة حضارة جديدة مزجت بين المسيحية والتراث الهلنستي ، وكان القسم الثـالث الذي غطى اربعة قرون وامتد من ١٠٥٧ وحتى ١٤٥٣ م فتـرة انحـدار مستمر في مسـالك الضـعف والانهيار الحضـاري والعسـكري والسياسي حتى اخيرا سـقطت القسـطنطينية للعثمـانيين فـزالت الامبراطورية من الوجود .

وقليلة هي الدول التي شغلت دورا تاريخيا يمـاثل في الأهمية دور بيزنطة ، ففي هذه الدولة جاء إلى الوجود مايدعى بـاسم حضـارة اوربة الشرقية، وفيها حفظت عناصر الثقافة الكلاسيكية حتى تمكنت اوربة الغربية من استعادة نشـاطها فتسـلمت هـذه العناصر حيث قامت بتـطويرها ، وعلى اسـاسها اقـامت الحضـارة الأوربية الحديثة .

وكافحـت الامبـراطورية البيزنطية في الفتـرة الاولى (٥٦٥ ـ ٧١٧) من أجل وجودها في وجه أعداء انقضـوا عليها من كل جانب ، وكان الأفار أشد الأعداء في جهـة الشـمال ، والأفار كانوا واحدا من الشعوب الأسيوية من أصل تـركي ، وكان مركز سيطرة هذا الشعب في السهل الهنغاري ومناطق غربي الدانوب وشرقي جبال الألب ، وبأحواز مناطق هذا الشعب عاشـت شـعوب

بربرية مماثلة مثل قبائل الصقالبة (السلاف) واحيانا تعاون الأفار والسلاف في نشاطهم ضد الأمبراطورية ، على انه كانت عناصر الأفار عناصر إغارة وسلب ونهب ، ولم يكن لها خطط للاستيلاء على بعض مقاطعات الامبراطورية والاستقرار بها ، وقد دمرت هذه العناصر الأراضي الواقعة في جنوبي الدانوب وظهرت مرات عديدة على مقربة من أسوار القسطنطينية ، لكنها لم تكن من القوة بمكانة تمكنها من اقتحام أسوار المدينة الحصينة ، وعندما كان أباطرة هذه الفترة يشغلون أنفسهم في تحصين حدود دولتهم الآسيوية فقد كان بمكنة الآفار النشاط كيفما شاءت ارادة عصاباتهم ، واختلف حال الصقالبة قليلا فعلى الرغم من تحالف الصقالبة مع الآفار الا أن قبائل هذه الشعوب كانت ترغب في احتلال موطن تستقر فيه ، وقد نجحت في ذلك ضمن المقاطعات الأوربية الشرقية ، ويرى بعضهم أنه في القرن السابع انتشر الصقالبة في جميع أجزاء الامبراطورية الأوربية مما غير من طبيعة أجناس وشعوب هذه الأجزاء بما فيها اليونان ذاتها.

ولم يصرف الأباطرة كبير جهد وعناية بالمقاطعات الأوربية لدولتهم ، وكانوا يثقون بمناعة أسوار عاصمة ملكهم ، ولذلك أوقفوا جهودهم في سبيل حماية المقاطعات الآسيوية الغنية ، وعلى حدود هذه المقاطعات وجد أقوى أعداء بيزنطة وأشدهم شكيمة ، الا وهو الامبراطورية الساسانية الفارسية ، التي كانت ذات عداء تقليدي مع روما ، وكانت سياستها تعتمد دائما على العمل في سبيل الوصول الى شواطىء البحر المتوسط ، ولقد استطاع الفرس أيام الامبراطور البيزنطي فوقاس تحقيق أحلامهم فتمكنت قواتهم من احتلال سورية ومصر وزحفت القوات نحو آسية الصغرى ، وفي هذه الظروف الحرجة قام الافار بحصار القسطنطينية ، وهكذا خيل للناس أن الامبراطورية جاء أوان دمارها ، لكن أسوار العاصمة صمدت في وجه الأفار ، ولم يكن لدى الفرس اسطولهم الخاص لينشيط في البحر المتوسط ، وهنا أرسل حاكم إفريقية هرقل ابنه وسميه على رأس قوة تمكنت من الاستيلاء على القسطنطينية حيث

عزلت الامبراطور فوقاس وسببت قتله ، وتم تنصيب هرقل امبراطورا جديدا .

وسعى هذا الجندي الممتاز والاداري الشجاع نحو تجنيد جيش يحارب الفرس ، واعلنها حربا صليبية ضد فارس التي سلبت صليب الصلبوت من القدس (الخشبة المعتقد أنه تم صلب المسيح عليها) وبواسطة حرية العمل في البحر تمكن هرقل من انزال قواته على الساحل السوري فضرب القوات الفارسية في جنبها وأطرافها فهزمها واخذ يطاردها حتى اشتبك معها في معركة فاصلة سنة ٦٢٧ م قرب خرائب مدينة نينوي التاريخية فهزم الفرس وسحق جيشهم وطرد فلول هذا الجيش حتى اسوار المدائن العاصمة الساسانية حيث فرض صلحا مذلا على الفرس .

وبينما كان هرقل يقاتل الفرس كانت بقعة نائية لكنها قريبة من حدود سورية والعراق تشهد حوادث ستبدل وجه الأرض ، فقبل خمس سنوات من معركة نينوى كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم قد هاجر من مدينة مكة الى يثرب بعد عمل دعوي استمر ثلاث عشرة سنة ، وفي المدينة أسس هذا النبي العظيم دولة مركزية عقائدية ، وتمكن من توحيد قبائل شبه جزيرة العرب تحت راية عقيدته السماوية الجديدة ، وتوفي النبي محمد صلى الله عليه وسلم في عام ٦٣٢ م وكان هذا مصادفا لاقامة هرقل في سورية حيث كان يحتفل بنصره ويعيد تنظيم دولته ، وبعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم بأقل من عامين ، وبفضل عقيدة الجهاد التي جاء بها هذا النبي من عند الله ، اندفع العرب من شبه الجزيرة كالسيل الجارف ، فتمكنت قواتهم المنظمة الفتية من ايقاع الهزيمة بالجيوش البيزنطية والساسانية ، فلقد حطمت الجيوش المسلمة الامبراطورية الساسانية وازالتها من الوجود ، وطردت الجيوش البيزنطية من سورية ومصر ، ثم من شمال افريقية ، وهددت القسطنطينية ذاتها .

وكان للفتوحات الاسلامية ابعد الآثار على بيزنطة ، فقد بات

على هذه الامبـراطورية أن تعيد تنظيم ادارتهـا ومـواردها بعـدما حرمت من اراضي آسية وافريقية الغنية ، كما بـات عليهـا أن تعيد النظر في سياستها الدينية وتـزيد مـن الاعتمـاد على مقـاطعاتها الأوربية ، وصار الآن تـاريخ بيزنطـة في الدرجـة الأولى تـاريخ العلاقات مع الاسلام ودولتـه في المدينة ثـم في الشـام ثـم في العراق ، وبعد ذلك في الشـام ومصر ، كمـا هـو تـاريخ صراع الامبراطورية من أجل الحفاظ على أوربة الشرقية ومواردها في وجه الطامعين .

لقد درست العلاقات العربية البيزنطية من قبل أكثر مـن بـاحث وتعرضنا في الجزاين الماضـيين الى مـا يعـذبنا الآن مـن الموضوع ، ولذلك سنركز الحديث حول ما يمـكن دعوتـه بـالتاريخ البيزنطي الداخلي المحض .

لقد ألم بالدولة البيزنطية في ظل أسرة جستنيان ثـم أسرة هـرقل تطور بعيد للغاية وسريع ، حيث يبدو أن اباطرة هذه الفتـرة أدركوا مليا أن بقاء الامبراطورية واستمرار وجودها يعتمد إلى ابعد الحدود على مـواردها الاقتصـادية ، وكانت الزراعة على رأس هـذه الموارد ، ذلك انها لم تؤمن للدولة الحبوب لعيش سكانها فحسب بل أمنت الطاقة البشرية لأعمال التجنيد والحرب ، وقد جهد الأباطرة في العناية بالزراعة وأعمـار الأرض ، ونلاحـظ أن الصـقالبة الذين دخلوا اراضي الامبراطورية في أوربة الشرقية لم يكونوا جميعـا قـد دخلوا على شكل غزاة ، بـل جلبـت أعداد كبيرة منهـم لأعمـار الأرض ، وفعـلا اسـتطاع هؤلاء المعمـرين زيادة الانتـاج الزراعي ، ومع نهاية هذه الفترة الأولى كانت آسيةالصغرى مـع المقـاطعات الأوربية مـكتظة بـالسكان ، والحياة فيهـا مزدهرة ، وكانت أهم المزروعات هي الحبوب والخضـار وحـدائق الفواكه والعنب والزيتون ، وتذكر الأخبـار انه في زمـن جسـتنيان أخذت بيزنطة في انتاج الحرير بكميات كبيرة .

ووجد في الامبراطورية العـديد مـن المدن ، وكانت المدن مـراكز

للصناعة والتجارة ، وقدر بعضهم عدد سكان القسطنطينية في هذه الفترة بمليون كما كان هناك من المدن ماكان تعداد سكانه نصف مليون ، وقد تم الانتاج الصناعي من قبل مجموعات منظمة حسب نظام الأصناف ، او من قبل جماعات تعاونية متضامنة ، وكانت التعاونيات مع الأصناف كلها تسير من قبل الدولة وباشرافها المباشر ، وكان لكل صنف حق احتكار نوع من البضائع ، وكانت الدولة تشرف على شراء المواد الخام وتأهينها ثم تقوم ببيع المنتجات بعدما يكون تم صنعها حسب مواصفات محددة وتبع طرائق معينة ، وكانت الدولة تتدخل في تحديد الأجور والأرباح ، وفي الحقيقة كان كل شيء في الامبراطورية يقع تحت المراقبة المباشرة للدولة والتي كانت تتدخل في كل شعبة من شعب الحياة ، وكان من نتائج ذلك قيام عمل صناعي واقتصادي منتظم مخطط له وكانت غالبية المنتجات بضائع كمالية غالية الثمن تصلح للتصدير ، مثل المنسوجات الحريرية والصوفية الممتازة وأنواع الزرابي والمجوهرات والأدوات العاجية وغيرها المحلاة والمزينة ، وروعيت المنتجات المرتبطة بالأمور الدينية وأعطيت من العناية الشيء الكبير مثل الأيقونات المختلفة الأشكال وسوى ذلك مما تم تقليده في بلدان كثيرة ، والى جانب هذه المنتجات اهتمت الصناعة بأنواع الاسلحة والعتاد الحربي ، وقد احتكرت الدولة لنفسها المنتجات هذه وتصرفت بها حسب سياسة خاصة .

وكما وقعت الصناعة تحت اشراف الدولة كذلك كان حال التجارة حتى يمكن القول بان تجارة الحبوب والحرير لم يكن يحق للأفراد العمل بها بل كان ذلك محصورا بالدولة فقط ، ولاشك أن هذا الحال كان له مؤثراته على المغامرات التجارية والتلاعب بالأسعار ، وفي الوقت الذي كانت فيه الدولة تشرف على التجارة والصناعة يلاحظ ان ذلك كان داخليا فقط اي أن اعمال التصدير والاستيراد كانت في يد تجار اجانب ، فالدولة كانت تتعامل اثناء عمليات التجارة الخارجية مع تجار اجانب وليس مع حكومات ، وكانت القسطنطينية اوسع سوق تجاري في العالم ، إليها حملت بضائع

الشرق والغرب ومنها حملت المستوردات والمنتجات ، وكان هناك احياء خاصة بالتجار الأجانب الذين تمتعوا بالحماية وبحقوق خاصة وامتيازات ، وقد تولت سفن دويلات ايطاليا مثل اما لفي والبندقية ورافينا نقل معظم البضائع ، وقد حمل التجار الذين جاءوا الى القسطنطينية من اقصى الأرض معهم في طريق عودتهم منتجات هذه المدينة وذلك بعدما باعوا بضائعهم ، وتمت عمليات البيع والشراء لاعن طريق المقايضة بل بالعملة البيزنطية التي كانت وحدتها الاساسية من الذهب ، وكانت النقود البيزنطية مقبولة في كافة انحاء العالم نظرا لعناية الدولة بعيار الذهب وعدم التلاعب به ثم لاحتكارها عمليات ضرب النقود الأمر الذي لم يكن سائدا في اوربة وغيرها من البلدان والدول ، وبسبب طبيعة الوضع التجاري للامبراطورية لم يوجد في المجتمع البيزنطي بيوتا تجارية ثرية كما كان هو الحال في الدولة العباسية ، ولذلك لايمكن الحديث عن اثر الطبقات الارستقراطية التجارية في صنع التاريخ البيزنطي لعدم وجود هذا النوع ، هذا وقد شكلت أصناف الحرفيين طبقة وسطى في المجتمع البيزنطي وكانت الطبقات العليا مكونة من رجال السلطة وملاك الأرض ، وقد ارتبطت السلطة بالجيش ، ومن الملاحظ ان بيزنطة اولت الجيش عناية فائقة من كافة الجوانب من تسليح وتدريب وامتيازات ورواتب ، وقد تطورت العلوم العسكرية في بيزنطة بشكل سريع ، وظهر في التاريخ البيزنطي عدد من العباقرة العسكريين الذين برعوا في الميادين النظرية والعملية ، وكان قوام الجيش البيزنطي يتكون من سلاح الفرسان الثقال الذين كانوا وخيولهم مدرعين وكانوا يعتمدون على قوة الخرق لرماحهم القوية والناتجة عن اندفاع خيولهم ، وبالاضافة للفرسان وجد الرجالة الذين تسلحوا بالنبال والرماح والحراب والسيوف ، وعملت الأسلحة كلها متعاونة في المعركة حسب نظام تعبئة له نظرياته ، وكان سلاح الفرسان يعتمد في عناصره البشرية على المواطنين الأحرار من بيزنطة وكان لكل فارس خدمه الذين كانوا يعتنون بالخيول ويطبخون الطعام ويغسلون الثياب ، وفي المعركة

كان الخدم يتولون حراسة أسيادهم ، وقد منح كل فارس اقطاعية من الأرض خاصة تقوم بأوده وتؤمن له ماكان يحتاج اليه من نفقات ، وكان سلاح المشاة يتكون من نوعين وذلك حسب التسليح ، فقد كان هناك المشاة الثقال والمشاة الخفاف ، وكان سلاح القسم الأخير القوس والنشاب في حين كانت أسلحة القسم الأول السيف والفأس والحراب ، وكان على راس كل واحد منهم خوذة ويرتدي درعا أو سابغة ويحمل في يده درقة أو ترسا معدنيا .

وقد قسمت الامبراطورية الى عدة مقاطعات عرفت باسم البنود حكم كل منها ضابط كبير حصر في يديه السلطات المدنية والعسكرية وكان تحت تصرف حاكم كل بند من البنود مابين ثمانية الاف الى عشرة آلاف وكما سلفت الاشارة نبغ عدد من الأباطرة في العلوم العسكرية ، ومن هؤلاء الامبراطور موريس (٥٨٢ ـ ٦٠٢) فقد الف رسالة في العلوم الستراتيجية ، واهم منه الامبراطور ليو(٨٨٦ ـ ٩٨٢ م) فقد كتب رسالة في العلوم العسكرية شرح فيها كيف ينبغي أن يكون نظام الجيش البيزنطي وتسليحه كما شرح خطط القتال التي ينبغي لهذا الجيش تنفيذها والأخذ بها اثناء قتال كل شعب من الشعوب ، وعلى سبيل المثال نجده يتحدث عن القتال مع العرب ويبين كيفية التعامل مع الجيوش المسلمة التي كانت تقوم بأعمال الشواتي والصوائف داخل الأراضي البيزنطية في اسية الصغرى ، فبعد ماكان قائد البند يصله الانذار بعبور جيش عربي للحدود ، وذلك بواسطة نقاط المراقبة التي كانت ترسل اخبارها بواسطة المرايا أو النار والدخان أو الطيور وغير ذلك من السبل ، كان عليه ان يرسل في الحال قوة صغيرة تمنع الغزاة من السلب وفي الوقت نفسه يستنفر فرسانه ويقودهم ، ويرسل مشاته لتنتشر في الممرات الجبلية الصعبة كيما تحول بين المسلمين وبين التراجع ، ويقوم هو بفرسانه باجبار الغزاة على التراجع بشكل غير منتظم دون خوض معركة مواجهة ، وكان يقوم بالاشتباك ويلتحم بالجيش الغازي ساعة تتمكن مشاته من التطويق ، وبواسطة هذه القواعد القتالية تمكنت قوات بيزنطة من

تحطيم العديد من الجيوش العربية الكبيرة ، وكان ضباط الجيش البيزنطي جنودا محترفين بكل ماتعنيه الكلمة ، وعلى عكسهم كان بارونات الغرب الأوربي حيث كانوا هواة قتال شجعانا بلا نظام ولاقواعد للقتال ، يندفعون دون حساب للنتائج ، وكان الضابط البيزنطي لايتورط في القتال مالم يكن ضامنا للنصر ، وذلك ان بيزنطة كانت ذات موارد محدودة لايمكنها المغامرة لأن ذلك كان يتعلق بمصير وجودها .

وقد اشار كل من موريس وليو الى أهمية الاتصالات السياسية للحيلولة دون العمل العسكري غير مضمون النتائج ، لكن كان على الضابط القائد لاحدى الحاميات أو سواه من ذوي الشأن عندما يتوصل الى قناعات فيها انه لاجدوى من المفاوضات كان عليه تضييع الوقت وتضليل العدو ، ومن جهة اخرى اعداد الجيش لانزال ضربة مفاجئة وبلا مقدمات ، وكان من المفيد قبل الشروع في الالتحام كتابة رسائل من والى داخل جيش العدو وجعل هذه الرسائل تحمل اسماء كبار ضباط الخصوم ، وجعل بعض الرسائل يقع في قبضة قائد جيش العدو ، فليس اسهل من تحقيق النصر على جيش قيادته متفسخة لايثق أفرادها ببعضهم بعضا،لقد كان على الضابط البيزنطي ان يتصرف ببراعة وخداع ، ولاشك ان هذا كان وراء وسم البيزنطيين باللا أخلاقية في الحرب والسياسة ، وبالجبن والغدر وذلك من قبل خصومهم في أوربة الغربية والعرب سواء .

ولقد كانت الحكومة في الامبراطورية عبارة عن جهاز معقد متسع لكنه قادر على تأدية مهامه ، انما بنفقات عالية للغاية ، وغالبا ماكان هذا الجهاز يصاب بالفساد والتعفن ، وذلك في عهود كل الأباطرة الضعفاء ، ولهذا نجد ان كل واحد من الاباطرة العظماء يعمل عند تسلمه السلطة على اعادة تشكيل الادارة وتنظيمها ، ومعروف انه قام على راس الادارة والحكم امبراطور واحيانا اكثر من امبراطور وكان اختيار الامبراطور في هذه الفترة ينبغي أن يتم بشكل انتخابي ، ويصبح انسان ما امبراطورا عندما

يختاره مجلس الشيوخ أو الشعب أو الجيش كل على انفراد أو اجتماع ، لكن منذ جستنيان اخذ بمبدأ التوريث وقبل ، وقامت أسر وراثية حاكمة ، لذلك نجد منذ القرن الثامن انه عندما كان يرث العرش الامبراطوري رجل ضعيف فيثور عليه قائد الجيش أو سواه يتحكم به ولايعزله بل يبقيه حاملا للقبة الامبراطوري ، وفي القرن الحادي عشر وجدت قاعدة مقبولة انه يحق العرش فقط لمن تم انجابه في الحجرة الارجوانية من القصر الامبراطوري ، على أن النظام الذي ساد قبل القرن الحادي عشر كان له محاسنه ومضاره ، وكان بالامكان ازاحة الامبراطور الفاسد بواسطة الثورة ، لكن غالبا ماكان ذلك يكلف الدولة نفقات وجهود كبيرة للغاية أو يمزقها ويسبب الحروب الأهلية ، وبالتالي سيطرة رجال ليسوا من ذوي الصلاح على السلطة .

وكان الامبراطور البيزنطي انسانا مقدسا تم تعيينه من قبل الرب ليتحكم برقاب البشر ، وكان يتوج ويعمد باحتفالات بهية للغاية ويصير كل شئ ارتبط به مقدسا ، فعندما تبنى هرقل لقب بازليوس أعلن عن نفسه انه انسان له صفات علوية ربانية ، أو بالأحرى هو نصف انسان ونصف اله ، لذلك كان على رعاياه السجود له كما فعل اجدادهم تجاه الامبراطور الروماني الوثني ، وعاش الامبراطور في بلاط كله أبهة ، فقد قطن في قصر رائع تالف من عدة ابنية على شاطئ البسفور أحيطت بالحدائق الغناء ، وكذلك حياته كلها مراسم وطقوس ، وكان اينما تحرك أحيط بطائفة من الموظفين والخدم والحرس ، وكانت حياة البذخ داخل القصر ذات نفقات عالية ، كان على الرعية الفقراء تحملها ، ولقد استدعى تركيب الامبراطورية البيزنطية ومواريثها أن يكون على رأسها انسان ليس له نظير بين البشر ، وهذا ماحرص عليه البلاط ، ويذكر انه عندما كانت جحافل المغول تجتاح آسية ، استقبلت سفارة مغولية في القسطنطينية فعاد افرادها ليخبروا زعامتهم انهم عادوا من دولة لايمكن قهرها لقوتها وثرائها المرعب ، لذلك يحسن تجنب قتالها .

وكان الامبراطور البيزنطي حاكما اتوقراطيا مطلقا ، ليس

لصلاحياته حدود اوضوابط حتى أنه يشرف على الكنيسة ويسيرها ويوافق على تعيين البطريرق أو يعينه ، وكان يدعو المجلس الكنسي للاجتماع برئاسته ، ويصدر القرارات ممهورة بامضائه ، لكن سلطة الامبراطور على الكنيسة لم تكن قط مطلقة ، وتميز سكان الامبراطورية بتدينهم واهتمامهم الزائد بالمشاكل الدينية ، وكان الامبراطور يتجنب المواجهة في الخصومة مع البطريرق خاصة في المسائل التي تثير الجماهير .

ولقد حكمت الامبراطورية البيزنطية خلال الحقبة الثانية ٦١٦ ـ ١٠٥٧ م من قبل اسرتين وقد تم تأسيس الأسرة الأولى من قبل ليو الأيسوري وبقيت هذه الأسرة في السلطة من ٦١٦ وحتى ٨٦٧م ، وأسست الثانية من قبل باسيل الأول ودعيت باسم الأسرة المقدونية وحكمت هذه الأسرة من ٨٦٧ وحتى ١٠٥٧ خلال هذه الحقبة كانت الشعوب البلغاية قد اندمجت بالقبائل السلافية وكونت في شمال الامبراطورية دولة قوية كانت دوما معادية للامبراطورية الى ابعد الحدود ، ومع استمرار العداوة بين دولة البلغار والامبراطورية قام حكام البلغار فتبنوا لقب قيصر ، وهو اللقب الذي سيرثه ملوك روسيا فيما بعد ، وهم حين فعلوا ذلك أرادوا أن يظهروا بمظهر الند للامبراطور البيزنطي وليس التابع ، وقد تم تحويل البلغار الى المسيحية لكن هذا لم يترك أي أثر على سياستهم المعادية لبيزنطة ، وكان لهذه السياسة نتائج مهيلة ، فقد سفكت كميات كبيرة من الدماء بين الطرفين في معارك كثيرة ، وتمكن البلغار في أكثر من مناسبة من هزيمة جيوش الامبراطورية وحصار القسطنطينية ذاتها ، لكن عدم وجود اسطول لديهم حال دون تمكنهم من فتحها وبالتالي القضاء على الامبراطورية ، ولقد تعرضت حدود دولة البلغار لضغط عسكري جاء من قبل شعوب روسيا ، وكان أشد هذه الشعوب شكيمة البشناق ، وتحالف البشناق مع الامبراطورية ضد البلغار ، واخيرا نجد الامبراطور باسيل الثاني الذي عرف بلقب جزار البلغار يتمكن

في حملات استمرت من ٩٩٦ م وحتى ١٠١٨ م من قهر البلغار ودمج دولتهم في امبراطوريته .

وكان العرب أعدى أعداء الدولة البيزنطية وأقواهم ، ولن نتحدث عن العلاقات البيزنطية العربية ، بل سنكتفي بالاشارة الى بعض الأمور اشارة عابرة ، أما فيما يتعلق بمزيد من التفاصيل فيمكن مراجعة ذلك في كتابي تاريخ العرب والاسلام .

لقد هدد العرب أيام الدولة الاموية الامبراطورية وحاصروا عاصمتها أكثر من مرة ، وملكوا اسطولا قويا حاز النصر تلو الآخر من الأسطول البيزنطي ، وعرف العرب نظام الصوائف والشواتي ، وكان بنو أمية يشعرون بخطر بيزنطة لأن عاصمة دولتهم كانت في دمشق ، لكن بعد سقوط الدولة الأموية واتخاذ العراق مركزا للخلافة ،شغلت هذه الدولة نفسها في مشاكل أراضي الخلافة الشرقية في خراسان ، وكان ما أولته من اهتمام للعلاقات مع بيزنطة قليلا نسبيا ، لقد اعتمد العباسيون على مبدأ الدفاع العسكري على عكس سياسة بني أمية الهجومية ، لذلك قام العباسيون بتحصين مراكز الحدود مع بيزنطة فأقاموا ما عرف بنظام العواصم ، وكان اهتمام الدولة العباسية بالأسطول أقل من اهتمام الدولة الأموية به وفي عهد الخلفاء الأوائل من بني العباس قام عدد منهم مثل الرشيد ثم ولديه من بعده المأمون والمعتصم بنشاط عسكري كبير ضد بيزنطة جعلها تشتري السلم بمبالغ كبيرة .

وعلى الرغم من أن جبهة البلغار مع جبهة الاسلام استولت على وقت اباطرة بيزنطة واستهلكت جل اهتماماتهم ، إلا أن هؤلاء الأباطرة أدركوا ، أنهم لا يمكنهم اهمال العلاقات مع أوربة الغربية ، ولهذا نجد الأمبراطور الايسوري الذي عد نفسه امبراطور رومانيا يدخل في حوزته البندقية مع أجزاء من جنوب إيطاليا وصقلية وسردينية ، وزيادة على ذلك نجد البطريرق البيزنطي على الرغم من أستقلاله في منصبه الكنسي نجده مع الامبراطور يعترف نظريا بأن

البابا هو راس كل الكنائس ، وحيث أن البابا كان متورطا بمشاكل أوربة الغربية ، وبسبب أن الامبراطور البيزنطي كان يرى نفسه امبراطورا رومانيا ، لذلك نجد كثيرا من الأباطرة يتأثرون فيما كان يجري في دول أوربة الغربية ويتفاعلون معه .

على أن أول مواجهة حقيقية وقعت بين بيزنطة وأوربة الغربية كانت في سنة ٨٠٠ م عندما قام شارلمان (٧٦٨ ـ ٨١٤) ملك الفرنجة باتخاذ لقب امبراطور ، وأعلن عن اعادة قيام للامبراطورية الرومانية ، إنما رومانية مسيحية مقدسة ، وكانت بيزنطة تحكم آنئذ من قبل الامبراطورة ايرين والدة الامبراطور قسطنطين السادس ، وقامت ايرين بعزل ابنها وسملت عيناه وأعلنت نفسها امبراطورة حاكمة اصلية لبيزنطة وليس بالوصاية على ابنها كما الحال من قبل وكان شارلمان حين أعلن نفسه امبراطور يدعي خلو العرش الامبراطوري من رجل يشغله ، وفي البداية رفضت ايرين الاعتراف بالخطوة التي اقدم عليها شارلمان وجرت مباحثات بين الطرفين،وفي سنة ٨٠٣ م توصل الطرفان الى اتفاق يتم به حل المشكلة وتوحيد الامبراطورية الشرقية العتيدة مع الامبراطورية الغربية الفتية وذلك بزواج ايرين من شارلمان ، لكن حدوث انقلاب داخلي ضد ايرين حال دون تنفيذ ذلك ، وبعد هذا الحدث اصبحت أحداث الغرب الأوربي ذات آثار فعالة على بيزنطة لذلك يحسن بنا التوقف هنا في حديثنا عن بيزنطة لنعود فنتحدث باحثين في حوادث تاريخ أوربة الغربية والمقدمات التي ادت الى قيام شارلمان واعلان امبراطوريته ثم نعود الى عرض هذه القضايا بشيء من الاسهاب والتفصيل .

إنما قبل أن نختتم هذا يحسن بنا القيام بعرض للسياسة الدينية والمشاكل العقائدية التي عاشتها الامبراطورية في هاتين الفترتين ، أي منذ أيام جستنيان وحتى بداية القرن التاسع ، لقد ابتغت سياسة جستنيان الدينية السيطرة على الكنيسة مثل السيطرة على الادارة العسكرية والمدنية للدولة ، فلقد اراد جستنيان أن يكون

امبراطورا يجمع في يديه بين صولجان الملك وعصا راعي الكنيسة وأن يضع على رأسه تاج الملك إلى جانب تاج الشوك الموروث عن المسيح ، وقد اتجهت جهوده نحو توحيد العالم المسيحي وكنائسه تحت سيطرته ، وجعله يتبع كنيسة واحدة هو سيدها الفعلي ، وقد جهد أولا في سبيل القضاء على بقايا الوثنية وجميع أنواع الهرطقات قضاء تاما ، لذلك تمسك بما أصدره اسلافه من مراسيم دينية ، وتابع عملية اغلاق المدارس الفلسفية في أثينا وسواها وأقصى عن مهنة التدريس جميع المتنورين بالفلسفة الهلنسية ، وأراد أن يمارسها كل انسان بعيد عن الشبهات التحررية والفكرية كما أقصى اليهود عن جميع الوظائف الرسمية ، وفي عصر جستنيان واجهت الكنيسة انقسامات جديدة كان مصدرها سورية السريانية ، ففي منطقة الرها شمالي شرقي سورية حدثت مشادات دينية وطرحت بعض القضايا والتفسيرات الجديدة حول طبيعة شخصية المسيح ، وتمثل هذا بحركتين عرفتا بحركة النساطرة وحركة اليعاقبة ، فقد قال النساطرة إنه إذا كان المسيح قد ولد ولادة بشرية فأمه السيدة العذراء هي انسان عادي ليس لها أية صفات علوية ، وخالفهم اليعاقبة في ذلك فقاموا بمنح العذراء الصفات الالهية العلوية ، وأيدت الدولة اليعاقبة الذين عرفت حركتهم باسم المونوفيزتية ، ونكلت بالنساطرة وطاردتهم ، مما دفع بعض هؤلاء الى ترك سورية والهجرة الى الأراضي الساسانية ، ومن هناك نشط النساطرة فأوصلوا المسيحية إلى الشرق الأقصى كما شغلوا دورا بارزا في نقل الثقافة السريانية الى بلاد فارس وتابعوا هذا الدور فيما بعد ، بعد قيام الاسلام وقيام حركة الترجمة الى العربية في العصرين الأموي ثم العباسي

وحاول اليعاقبة أن يقدموا تعليلا للعلاقة بين الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية في شخصية المسيح ، وقد رفضت البابوية هذا التعليل ، وحينما قام الخلاف أيام جستنيان حول هذه المسألة تأرجح الامبراطور بين الكاثوليكية والمونوفيزتية ، وبعدما دخلت

قواته روما أتخذ موقفا محددا من هذه المسألة ، ألا وهو موقف زوجته ثيودورا ، التي دانت بمذهب اليعاقبة ، وحينما رفض البابا فجليوس هذا الراي اعتقله جنود الامبراطور وساقوه الى القسطنطينية حيث عقد في سنة ٥٥٣ مجمع كذسي مسكوني جديد برئاسة الامبراطور اقر فكرة اليعاقبة لكن هذا لم يؤد الى تلاحم الكنيستين الشرقية والغربية بل زاد من حدة الانقسام بينهما ، فبعد وفاة جستنيان بفترة وجيزة دخل اللومبارديون ايطاليا فأنهوا السيطرة البيزنطية على روما ، ولا بد من الاشارة هنا إلى أن من دوافع تأييد أفكار اليعاقبة كونهم أصحاب القوة في سورية ومصر ، وكان الامبراطور مضطرا الى أخذ ذلك بعين الاعتبار ، لكن تطور الأحداث فيما بعد ، خاصة بعد قيام الاسلام وفتح المسلمين لكل من سوريية ومصر جعل الامبراطورية تفكر في إيجاد سياسة جديدة تتقرب فيها من البابوية ، ولهذا نجد الأمبراطور قسطنطين الرابع يحاول استرضاء البابا اجاثون (٦٧٨ ـ ٦٨١ م) فتم عقد مجمع مسكوني جديد سنة ٦٨١ م في القسطنطينية قرر اعدام المونوفيزتية ، وطبعا عاشت هذه العقيدة واستمرت موجودة وهي عقيدة الكنيسة المصرية في أيامنا هذه .

وبعد هذا المجمع عانت المسيحية من مشاكل جديدة وتعلقت هذه المرة بمسائل مختلفة عما مضى ، لقد تعلقت بعبادة الصور أوكما تعرف عادة بمشكلة عبادة الايقونات ، ذلك أن المسيحيين أخذوا في تصوير بعض مراحل حياة السيد المسيح وذلك ربما منذ القرن الرابع وزينت الكنائس بهذه الصور مع تماثيل كثيرة ، وأخذ بعضهم يقدس هذه الصور لا بل يعبدها ورأى بعض المتنورين في ذلك نوعا من انواع الشرك الوثني ، وانقسم الناس بين مؤيد لتقديس الصور وأخر رافض ، وارتبط ذلك بالسوية الثقافية مع التراث الفكري لكل مجتمع من المجتمعات المسيحية،فحيث وجد التراث الهلنستي في الامبراطورية البيزنطية فقد كان تيار المعاداة للايقونات قويا ، وعكس هذا كان الحال في أوربة الغربية المتدنية ثقافيا .

وبدأت حرب الايقونات خارج العالم المسيحي سياسيا، لقد بدأت في ديار الاسلام،فقد أصدر الخليفة يزيد بن عبد الملك سنة ٧٢٣ م أمرا بتحريم عبادة الأيقونات ، ذلك أن الاسلام حرم الشرك وعبادة الأوثان ، ومن ديار الأسلام انتقلت الفكرة الى بيزنطة وسواها من ديار المسيحية ، وتمسك الامبراطور ليو بفكرة تحريم عبادة الصور وعارضته البابوية فكان هذا سهما جديدا طرح في معترك الخلاف بين الشرق والغرب .

ففي سنة ٧٢٦ م أصدر الامبراطور ليو قرارا بتحريم عبادة الصور وأمر بازالة جميع التماثيل والصور من الكنائس ، وردت البابوية عليه بحرمانه من المسيحية وطرده من الكنيسة ، فقام بمصادرة أملاك البابوية في كافة المقاطعات التابعة له في جنوب ايطاليا وصقلية وفصل الكراسي الأسقفية في هذه المناطق عن البابوية ولقد ساعدت هذه الصراعات البابوية وزادت من تحكمها بايطاليا وشجعتها على التعاون مع الدول البربرية وكانت المقدمات الأولى لقيام امبراطورية شارلمان .

ستهزم مع الأيام حركة معارضة عبادة الصور ، وسيترافق انتصار عبادة الصور مع تقديس بقايا القديسين والاعتقاد بصدور المعجزات عن هذه البقايا وعن بعض الأيقونات ، وأخذ الناس يرتحلون من مكان الى آخر لزيارة الايقونات والبقايا المقدسة ، وتطور هذا مع تطور الحياة التجارية وحركات النقل إلى ابداع ما سيعرف باسم عقيدة الحج في المسيحية مما سيكن له أوسع الآثار في رواج الحركة الصليبية .